

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير : ١٩] فهذا قد ذكره في موضعين ، فقال في الحاقة : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة : ٤٠ - ٤٢] فالرسول هنا محمد ﷺ ، وقال في التكوير : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير : ١٩ - ٢٣] فالرسول هنا جبريل ، فأضافه إلى الرسول من البشر تارة ، وإلى الرسول من الملائكة تارة ، باسم الرسول ، ولم يقل : إنه لقول ملك ولا نبي ؛ لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ / عن غيره لا منشئ له من عنده ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور : ٥٤ ، العنكبوت : ١٨] ، فكان قوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ بمنزلة قوله : لتبليغ رسول ، أو مبلغ من رسول كريم ، أو جاء به رسول كريم ، أو مسموع عن رسول كريم ؛ وليس معناه : أنه أنشأه ، أو أحدثه ، أو أنشأ شيئاً منه ، أو أحدثه رسول كريم ؛ إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولا فيما أنشأه وابتدأه ، وإنما يكون رسولا فيما بلغه وأداه ، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقاً .

١٢/٢٦٦

وأيضاً ، فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه ، امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها ، فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول لأجل إحداث لفظه ونظمه ، ولو جاز أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه ، لجاز أن نقول : إنه قول البشر ، وهذا قول «الوحيد» الذي أصلاه الله سقراً .

فإن قال قائل : فالوحيد جعل الجميع قول البشر ، ونحن نقول : إن الكلام العربي قول البشر ، وأما معناه فهو كلام الله .

فيقال لهم : هذا نصف قول الوحيد ، ثم هذا باطل من وجوه أخرى :

وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة ، وأنتم تجعلون ذلك / المعنى معنى واحداً هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان تورا ، وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين ؛ فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة .

١٢/٢٦٧

وأيضاً ، فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين ، وإنما يشتركان في مسمى الكلام ، ومسمى كلام الله ، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع ، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام ، كله يشترك في أنه كلام الله ، اشتراك الأشخاص في أنواعها ، كما أن الإنسان وهذا الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان ، وليس في الخارج

شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والإنجيل والقرآن، وهو معنى آية الدين وآية الكرسي.

ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال: إن أصوات العباد وأفعالهم قديمة أزلية. فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلهما، والزم الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

١٢/٢٦٨ / وبسبب هاتين البدعتين الحمقاوين ثارت الفتن وعظمت الإحن، وإن كان كل من أصحاب القولين قد يفسرونهما بما قد يلتبس على كثير من الناس كما فسر من قال: إن الصوت المسموع من العبد أو بعضه قديم: أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه.

وأما «أفعال العباد» فرأيت بعض المتأخرين يزعم أنها قديمة خيرها وشرها، وفسر ذلك بأن الشرع قديم والقدر قديم، وهي مشروعة مقدرة، ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور به والمنهي عنه، ولم يفرق بين القدر الذي هو علم الله وكلامه وبين المقدور الذي هو مخلوقاته. والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطرار أن الأمر والخير نوعان للكلام، لفظه ومعناه، ليس الأمر والخير صفات لموصوف واحد - فمن جعل الأمر والنهي والخير صفات للكلام لا أنواعاً له فقد خالف ضرورة العقل، وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم أن الوجود واحد؛ إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين؛ فإن انقسام «الموجود» إلى القديم والمحدث، والواجب والممكن، والخالق والمخلوق، والقائم بنفسه والقائم بغيره، كانقسام «الكلام» إلى الأمر والخير، أو إلى الإنشاء والإخبار، أو إلى الأمر والنهي والخير - فمن قال: الكلام معنى واحد هو الأمر والخير، فهو كمن قال: الوجود واحد هو الخالق والمخلوق، أو الواجب والممكن. وكما أن حقيقة هذا تؤول^(١) إلى تعطيل الخالق فحقيقة / هذا تؤول^(٢) إلى تعطيل كلامه وتكليمه.

١٢/٢٦٩

وهذا حقيقة قول فرعون الذي أنكر الخالق وتكليمه لموسى؛ ولهذا آل الأمر بمحقق هؤلاء إلى تعظيم فرعون، وتولية وتصديقه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] بل إلى تعظيمه على موسى وإلى الاستحقاق بتكليم الله لموسى، كما قد بسط في غير هذا الموضوع.

وأيضاً، فيقال: ما تقول في كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره - كما قد ينقل كلام النبي ﷺ والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم وبسمع من الرواة أو المبلغين - إن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ أو كلام المبلغ عنه؟ فإن قال: كلام المبلغ

(١، ٢) في المطبوعة: «تؤل» والصواب ما أثبتناه.

لزم أن يكون القرآن كلاماً لكل من سمع منه، فيكون القرآن المسموع كلام ألف ألف قارئ لا كلام الله - تعالى - وأن يكون قوله: «إنما الأعمال بالنيات»^(١) ونظائره كلام كل من رواه لا كلام الرسول، وحينئذ فلا فضيلة للقرآن في ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، التكوير: ١٩] فإنه على قول هؤلاء قول كل منافق قرأه، والقرآن يقرؤه المؤمن والمنافق، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن / مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»^(٢). وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد، بل قول ألف ألف بشر وأكثر من ذلك. وفساد هذا في العقل والدين واضح.

١٢/٢٧٠

وإن قال: كلام المبلغ عنه، علم أن الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله؛ ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال: إنه شيطان بين الله أنه تبليغ ملك كريم، لا تبليغ شيطان رجيم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢٥] وبين في هذه الآية أن الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون، وما هو على الغيب بمتهم. وذكره باسم «الصاحب» لما في ذلك من النعمة به علينا، إذ كنا لا نطبق أن نتلقى إلا عن صحبناه وكان من جنسنا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] وبين أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي، أنهما مبلغان، فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله.

فلما كان الرسول البشري يقال: إنه مجنون أو مفتر، نزهه عن هذا وهذا، وكذلك في السورة الأخرى قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا / مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣] وهذا مما يبين أنه أضافه إليه؛ لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه، فإنه قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣] فجمع بين قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وبين قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والضميران عائدان إلى واحد، فلو كان الرسول

١٢/٢٧١

(١) سبق تخريجه ص ٤٤.

(٢) البخاري في الأظعمة (٥٤٢٧) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٧/٢٤٣).

أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلاً من رب العالمين، بل كان يكون تنزيلاً من الرسول.

ومن جعل الضمير في هذا عائداً إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر، مع أنه ليس في الكلام ما يقتضى اختلاف الضميرين، ومن قال: إن هذا عبارة عن كلام الله - فقل له: هذا الذي تقرؤه أهو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك؟ أم هو نفس تلك العبارة؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً؛ فإنه متى قال: إن محمداً سمعه من جبريل جميعه، وجبريل سمعه من الله جميعه، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه، فقد قال الحق . وبعد هذا فقلوه: عبارة ، لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه، كما سنبينه .

وإن قلت: ليس هذا عبارة عن تلك العبارة، بل هو نفس تلك العبارة، فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ / عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل، فحينئذ هذا يبطل أصل قولك.

واعلم أن أصل القول بالعبارة: أن أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب هو أول من قال في الإسلام: إن معنى القرآن كلام الله، وحروفه ليست كلام الله . فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة، وكان قد ذهب إلى إثبات الصفات لله - تعالى - وخالف المعتزلة في ذلك ، وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات، وقرر ذلك تقريراً هو أكمل من تقرير أتباعه بعده . وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره، هل يقال له حكاية عنه أم لا؟ وأكثر المعتزلة قالوا: هو حكاية عنه، فقال ابن كلاب : القرآن العربي حكاية عن كلام الله ، ليس بكلام الله .

فجاء بعده أبو الحسن الأشعري ، فسلك مسلكه في إثبات أكثر الصفات، وفي مسألة القرآن أيضاً، واستدرك عليه قوله: إن هذا حكاية، وقال: الحكاية إنما تكون مثل المحكي فهذا يناسب قول المعتزلة، وإنما يناسب قولنا أن نقول : هو عبارة عن كلام الله؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة، فأنكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور:

١٢/٢٧٣ /أحدهما: قولهم : إن المعنى كلام الله، وإن القرآن العربي ليس كلام الله، وكانت المعتزلة تقول : هو كلام الله وهو مخلوق ، فقال هؤلاء : هو مخلوق وليس بكلام الله؛ لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به ، كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم

(١) أي : زَجَرَهُ وَنَهَرَهُ . انظر: المصباح المنير، مادة «زبر» .

القادر، وكذلك الحركة . وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية في قولهم: إن كلام الله مخلوق، خلقه في بعض الأجسام ، قالوا لهم: لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه، فكانت الشجرة هي القائلة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] ، فقال أئمة الكلاية : إذا كان القرآن العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله، فقال طائفة من متأخريهم : بل نقول : الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة، فقال لهم المحققون : فهذا يبطل أصل حاجتكم على المعتزلة ، فإنكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره، أمكن المعتزلة أن يقولوا: ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره .

الثاني: قولهم : إن ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر، وهو معنى التوراة، والإنجيل والقرآن، وقال أكثر العقلاء : هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل .

/ الثالث: أن ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ، وما بلغه محمد لأُمَّته من المعنى واللفظ، ليس هو كلام الله .

١٢/٢٧٤

ومسألة القرآن لها طرفان: أحدهما: تكلم الله به وهو أعظم الطرفين . و الثاني: تنزيله إلى خلقه . والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول . وقد بسطنا الكلام في ذلك في عدة مواضع ، وبيننا مقالات أهل الأرض كلهم في هذه المسائل، وما دخل في ذلك من الاشتباه، ومأخذ كل طائفة ، ومعنى قول السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنهم قصدوا به إبطال قول من يقول: إن الله لم يقم بذاته كلام؛ ولهذا قال الأئمة : كلام الله من الله ليس ببائن عنه، وذكرنا اختلاف المنتسبين إلى السنة، هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته أم لا؟ وقول من قال من أئمة السنة: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، وأن قول السلف: منه بدأ، لم يريدوا به أنه فارق ذاته وحل في غيره؛ فإن كلام المخلوق ، بل وسائر صفاته، لا تفارقه وتنتقل إلى غيره، فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته؟! بل قالوا: منه بدأ ، أي : هو المتكلم به رداً على المعتزلة والجهمية وغيرهم، الذين قالوا: بدأ من المخلوق الذي خلق فيه . وقولهم: إليه يعود ، أي يسري عليه، فلا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في الصدور منه آية .

/ والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل .

١٢/٢٧٥

فصل

وأما قول القائل : أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة، وتقولون : إن الذي تسمعونه كلام الله حقيقة، وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة، فما الفرق بين ذلك؟

فيقال له : بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق . فإن كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبي ﷺ منه بغير واسطة - كسماع الصحابة منه - وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس . وكل من السامعين سمع كلام النبي ﷺ حقيقة، وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا، وهو في الموضوعين شعر حسان لا شعر غيره، والإنسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم أن ذلك الشاعر أنشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة، وإن كان المبلغ يروي به بحركة نفسه وأصوات نفسه .

١٢/٢٧٦ / فإذا كان هذا الفرق معقولا في كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه، فكيف لا يعقل ذلك في سماع كلام الله؟ وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب، فهو إلى تأديب المجانين أقرب منه إلى خطاب العقلاء، وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو أن المداد قديم، فهذا لا يقوله ذو حس سليم، بل ما بين لוחي المصحف كلام الله، وكلام الله ثابت في مصاحف المسلمين لا كلام غيره، فمن قال: إن الذي في المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره، فهو ملحد مارق.

ومن زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره كما كتب في المصاحف ، أو أن المداد قديم أزلي - فهو أيضاً ملحد مارق، بل كلام المخلوقين يكتب في الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم، فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله - تعالى!؟

١٢/٢٧٧ والشبهة تنشأ في مثل هذا من جهة : أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد . مثال ذلك : أن الإنسان يقول: رأيت الشمس والقمر والهلال، إذا رآه بغير واسطة، وهذه «الرؤية المطلقة». وقد يراه في ماء أو مرآة، فهذه «رؤية مقيدة»، فإذا أطلق قوله: رأيت، أو ما رأيت، حمل على مفهوم اللفظ المطلق، وإذا قال: لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة، فهو كلام صحيح مع التقييد، واللفظ يختلف معناه بالإطلاق / والتقييد، فإذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشروط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] كان هذا المجموع دالا على

تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس .

ومن قال : إن هذا مجاز فقد غلط؛ فإن هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعية هي من تمام الكلام؛ ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين، ولا يجوز نفي مفهومهما، بخلاف استعمال لفظ الأسد في الرجل الشجاع، مع أن قول القائل: هذا اللفظ حقيقة، وهذا مجاز، نزاع لفظي، وهو مستند من أنكر المجاز في اللغة أو في القرآن، ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة، ولم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الأئمة إلا في كلام الإمام أحمد، فإنه قال فيما كتبه من «الرد على الزنادقة والجهمية» هذا من مجاز القرآن. وأول من قال ذلك مطلقاً أبو عبيدة معمر بن المنثري في كتابه الذي صنّفه في «مجاز القرآن»، ثم إن هذا كان معناه عند الأولين بما يجوز في اللغة ويسوغ، فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء: عقد لازم وجائز، وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز، ثم إنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة.

١٢/٢٧٨

/ والمقصود أن القائل إذا قال: رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك في الماء والمرأة، فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة، وإذا قال قائل: ما رأى ذلك، بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا مانعاً لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه في الماء أو المرأة، وهذه الرؤية في الماء أو المرأة حقيقة مقيدة، وكذلك قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً؛ فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي»^(١)، هو كما قال ﷺ رآه في المنام حقاً، فمن قال: ما رآه في المنام حقاً فقد أخطأ، ومن قال: إن رؤيته في اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ؛ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك.

وكذلك ما سمعه منه من الكلام في المنام هو سماع منه في المنام، وليس هذا كالسماع منه في اليقظة، وقد يرى الرائي في المنام أشخاصاً ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك، وإنما رأى مثالهم، ولكن يقال: رأهم في المنام حقيقة، فيحترز بذلك عن الرؤيا التي هي حديث النفس.

فإن الرؤيا ثلاثة أقسام: رؤيا بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام. وقد ثبت هذا التقسيم في الصحيح عن النبي ﷺ، / ولكن الرؤيا يظهر لكل أحد من الفرق بينها وبين اليقظة ما لا يظهر في غيرها،

١٢/٢٧٩

(١) البخاري في الرؤيا (٦٩٩٣) ومسلم في الرؤيا (١٠/٢٢٦٦، ١١) كلاهما عن أبي هريرة.

فكما أن الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرأة والماء أو غير ذلك ، حتى إن المرثي يختلف باختلاف المرأة ، فإذا كانت كبيرة مستديرة رؤى كذلك ، وإن كانت صغيرة أو مستطيطة رؤى كذلك ، فكذلك في «السمع» يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ، ففي الموضوعين المقصود سماع كلامه ، كما أن هناك في الموضوعين يقصد رؤية نفس النبي ، لكن إذا كان بواسطة اختلف باختلاف الوساطة فيختلف باختلاف أصوات المبلغين ، كما يختلف المرثي باختلاف المرايا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٥١].

فجعل التكليم ثلاثة أنواع : الوحي المجرد ، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى - عليه السلام - والتكليم بواسطة إرسال الرسول كما كلم الرسل بإرسال الملائكة ، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بإرسال محمد ﷺ . والمسلمون متفقون على أن الله أمرهم بما أمرهم به في القرآن ، ونهاهم عما نهاهم عنه في القرآن ، وأخبرهم بما أخبرهم به في القرآن ، فأمره ونهيه وإخباره بواسطة الرسول ، فهذا تكليم مقيد بالإرسال ، وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لا منه ، وهذا القرآن كلام الله مبلغاً عنه مؤدى عنه ، وموسى سمع كلامه مسموعاً منه لا مبلغاً / عنه ولا مؤدا عنه ، وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة .

١٢/٢٨٠

والنبي ﷺ يروي عن ربه ، ويخبر عن ربه ، ويحكي عن ربه ، فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله راوياً حاكياً عنه . فلو قال من قال : إن القرآن « حكاية » : أن محمداً حكاة عن الله ، كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله ، لكان قد قصد معنى صحيحاً ، لكن يقصدون - ما يقصده القائل بقوله : فلانا يحكي فلانا أي يفعل مثل فعله وهو - أنه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة ، لا بالوسائل المطلوبة لغيرها ، فلما كان مقصود الرائي أن يرى الوجه مثلاً فرآه في المرأة حصل مقصوده وقال : رأيت الوجه ، وإن كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرأة - وكذلك من كان مقصوده أن يسمع القول الذي قاله غيره الذي ألف ألفاظه وقصد معانيه ، فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود ، وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يختلف باختلاف الصائتين. والقلوب إنما تشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود ، كما في «الاسم والمسمى» فإن القائل إذا قال : جاء زيد ، وذهب عمرو لم يكن مقصوده إلا الإخبار

فمن ظن أن الموصوف بالمجيء والإتيان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلاً، فكذلك إذا قال القائل: هذا كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو، وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالي وصوته، فمن ظن أن المشار إليه هو صوت القارئ وحركته كان مبطلاً؛ ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الإمام أحمد - رضي الله عنه - : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص] وسأله: هل هذا كلام الله، وهل هو مخلوق؟ فأجابته بأنه كلام الله، وأنه غير مخلوق، فنقل عنه أبو طالب - خطأ منه - أنه قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فاستدعاه وغضب عليه، وقال: أنا قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ قال: لا، ولكن قرأت عليك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقلت لك: هذا غير مخلوق، فقلت: نعم، قال: فلم تحكي عني ما لم أقل؟ لا تقل هذا؛ فإن هذا لم يقله عالم - وقصته مشهورة حكاهما عبد الله وصالح وحنبل والمروزي وفوران، وبسطها الخلال في كتاب «السنة» ووصف المروزي في «مسألة اللفظ» مصنفاً ذكر فيه أقوال الأئمة.

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه؛ فإن الإشارة إذا أطلقت انصرفت إلى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به، لا إلى / ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم. فإذا قيل: لفظي، جعل نفس الوسائط غير مخلوقة، وهذا باطل، كما أن من رأى وجهاً في مرآة فقال: أكرم الله هذا الوجه وحياه، أو قبحه، كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا على الشعاع المنعكس فيها، وكذلك إذا رأى القمر في الماء فقال: قد أبدر أو لم يبدر، فإنما مقصوده القمر الذي في السماء لا خياله، وكذلك من سمعه يذكر رجلاً فقال: هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم أن المشار إليه هو الشخص المسمى بالاسم، لا نفس الصوت المسموع من الناطق. فلو قال: هذا الصوت أو صوتي بفلان صالح أو فاسق فسد المعنى.

وكان بعضهم يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فرأى في منامه وضارب يضربه وعليه فروة، فأوجعه بالضرب، فقال له: لا تضربني، فقال: أنا ما أضربك، وإنما أضرب الفروة، فقال: إنما يقع الضرب علي، فقال: هكذا إذا قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فالخلق إنما يقع على القرآن. يقول: كما أن المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة، فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة، فإذا قلت: مخلوق، وقع ذلك على المقصود، كما إذا سمعت قائلًا يذكر رجلاً فقلت: أنا أحب هذا وأنا أبغض هذا، انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا إلى صوت الذاكر؛ ولهذا قال الأئمة: القرآن كلام

الله غير مخلوق كيفما / تصرف ، بخلاف أفعال العباد وأصواتهم ، فإنه من نفى عنها ١٢/٢٨٣ الخلق كان مبتدعاً ضالاً .

فصل

وأما قول القائل : تقولون : إن القرآن صفة الله وإن صفات الله غير مخلوقة ، فإن قلت : إن هذا نفس كلام الله فقد قلت بالحلل وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وإن قلت غير ذلك قلت بمقاتلتنا .

فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله ؛ فإن منشأ الشبهة أن قول القائل : هذا كلام الله ، يجعل أحكامه واحدة ، سواء كان كلامه مسموعاً منه أو كلامه مبلغاً عنه .

ومن هنا تختلف طوائف من الناس .

طائفة قالت : هذا كلام الله ، وهذا حروف وأصوات مخلوقة ، فكلام الله مخلوق .

وطائفة قالت : هذا مخلوق ، وكلام الله ليس بمخلوق ، فهذا ليس كلام الله .

وطائفة قالت : هذا كلام الله ، وكلام الله ليس بمخلوق ، وهذا ألفاظنا وتلاوتنا ،

فألفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة .

١٢/٢٨٤ / ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق في المشار إليه في هذا فأنت تقول : هذا الكلام الذي تسمعه من قائله صدق وحق وصواب ، وهو كلام حكيم ، وكذلك إذا سمعته من ناقله تقول : هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم ، فالشار إليه في الموضعين واحد ، وتقول - أيضاً - : إن هذا صوت حسن ، وهذا كلام من وسط القلب ، ثم إذا سمعته من الناقل تقول : هذا صوت حسن ، أو كلام من وسط القلب ، فالشار إليه هنا ليس هو المشار إليه هناك ، بل أشار إلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإذا كتب الكلام في صفحتين كالمصحفين تقول في كل منهما : هذا قرآن كريم ، وهذا كتاب مجيد ، وهذا كلام الله فالشار إليه واحد ، ثم تقول : هذا خط حسن وهذا قلم النسخ أو الثلث ، وهذا الخط أحمر أو أصفر والشار إليه هنا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر .

فإذا ميز الإنسان في المشار إليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق ، وعلم أن من قال : هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، أن المشار إليه الكلام من حيث هو ، مع قطع

النظر عما به وصل إلينا من حركات العباد وأصواتهم ، ومن قال : هذا مخلوق وأشار به إلى مجرد صوت العبد وحركته ، لم يكن له في هذا حجة على أن القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارئ من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق ، من اعتقد ذلك فقد أخطأ وضل .

12/285 / ويقال لهذا : هذا الكلام الذي أشرت إليه كان موجوداً قبل أن يخلق هذا القارئ ، فهب أن القارئ لم تخلق نفسه ولا وجدت لا أفعاله ولا أصواته فمن أين يلزم أن يكون الكلام نفسه الذي كان موجوداً قبله يعدم بعده ويحدث بحدوثه؟ فإنشارته بالخلق إن كانت إلى ما يختص به هذا القارئ من أفعاله وأصواته، فالقرآن غني عن هذا القارئ وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا عدمه، وإن كانت إلى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل إلى محمد، وبلغه محمد لأمته ، وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يمتنع أن يكون مخلوقاً، فإنه لو كان مخلوقاً لكان كلاماً لمحلله الذي خلق فيه ولم يكن كلاماً لله؛ ولأنه لو كان - سبحانه - إذا خلق كلاماً كان كلامه ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود ، بل كل كلام في الوجود ، وهذا قول الحلولية الذين يقولون:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا شره ونظامه

ومن قال: القرآن مخلوق فهو بين أمرين : إما أن يجعل كل كلام في الوجود كلامه، وبين أن يجعله غير متكلم بشيء أصلاً، فيجعل العباد المتكلمين أكمل منه، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات، كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، فيكون قد فرَّ عن إثبات صفات الكمال له حذراً في زعمه من التشبيه، فوصفه بالنقص وشبهه بالجماد والموات .

12/286 / وكذلك قول القائل: هذا نفس كلام الله، وعين كلام الله ، وهذا الذي في المصحف هو عين كلام الله ، ونفس كلام الله ، وأمثال هذه العبارات . هذه مفهومها عند الإطلاق في فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره ، وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فإن من ينقل كلام غيره ويكتبه في كتاب قد يزيد فيه وينقص ، كما جرت عادة الناس في كثير من مكاتبات الملوك وغيرها فإذا جاء كتاب السلطان فقيل : هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص ؛ يعني : لم يزد فيه الكاتب ولا نقص . وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة في مسألة من تصنيفه قيل : هذا الكلام كلام فلان بعينه ؛ يعني لم يزد فيه ولم ينقص ، كما قال النبي ﷺ : « نَصَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ » (١) .

(١) سبق تخريجه ص ٥٧ .

فقوله: « فبلغه كما سمعه» لم يرد به أنه يبلغه بحركاته وأصواته التي سمعه بها، ولكن أراد أنه يأتي بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص، فيكون قد بلغه كما سمعه. فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله ﷺ، ويكون قد سمع كلام رسول الله ﷺ كما قاله. وذلك معنى قولهم: هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه. / لا يريدون أن هذا هو صوته وحركاته، وهذا لا يقوله عاقل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجئ أصحابه إلى القرمطة في السمعيات، والسفسطة في العقليات.

ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة، فإذا رأى الناس كلاماً صحيحاً، فإن من تكلم بكلام وسمع منه ونقل عنه أو كتبه في كتاب لا يقول عاقل: إن نفس ما قام بالتكلم من المعاني التي في قلبه والألفاظ القائمة بلسانه فارقت، وانتقلت عنه إلى المستمع والمبلغ عنه، ولا فارقت وحلت في الورق، بل ولا يقول: إن نفس ما قام به من المعاني والألفاظ هو نفس المداد الذي في الورق، بل ولا يقول: إن نفس ألفاظه التي هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه، فهذه الأمور كلها ظاهرة، لا يقولها عاقل في كلام المخلوق إذا سمع وبلغ أو كتب في كتاب، فكيف يقال ذلك في كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه أو كتبه - سبحانه - كما كتب التوراة لموسى، وكما كتب القرآن في اللوح المحفوظ، وكما كتبه المسلمون في مصاحفهم.

وإذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعناه، بل شعر مخلوق، كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة ولبيد وأمثالهم من الشعراء، ويقول الناس: هذا شعر حسان بعينه، وهذا هو نفس شعر حسان، وهذا شعر لبيد بعينه كقوله:

١٢/٢٨٨

/ ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومع هذا فيعلم كل عاقل أن رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حتى حلت بهم، بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين، فكيف يتوهم ستوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل في مخلوقاته، وأن ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات الباري حلت فيه؟! وهم لا يقولون مثل ذلك في المخلوق بل يمثلون العلم بنور السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم، كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوءاً^(١)، كما يقال: إن الهوى ينقلب ناراً بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير أن تتغير تلك النار التي في المصباح، والمقرئ والمعلم يقرئ القرآن ويعلم العلم ولم

(١) في المطبوعة: «ضواً» وهو خطأ.

ينقص مما عنده شيء ، بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده .

ولهذا يقال : فلان ينقل علم فلان ، وينقل كلامه ، ويقال : العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان وأمثال ذلك ، كما يقال : نقلت ما في الكتاب ونسخت ما في الكتاب ، أو نقلت الكتاب أو نسخته ، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التي في الكتاب الأول عدمت منه وحلت في الثاني ، بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام ، وذلك يحصل بأن يجعل في الثاني / مثل ما في الأول ، فيبقى المقصود بالأول منقولاً منسوخاً وإن كان لم يتغير الأول ، بخلاف نقل الأجسام وتوابعها ؛ فإن ذلك إذا نقل من موضع إلى موضع زال عن الأول .

١٢/٢٨٩

وذلك لأن الأشياء لها وجود في أنفسها وهو وجودها العيني ، ولها ثبوتها في العلم ، ثم في اللفظ المطابق للعلم ، ثم في الخط . وهذا الذي يقال : وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان ؛ وجود عيني ، ووجود علمي ، ولفظي ، وورسمي ؛ ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] ، فذكر الخلق عموماً وخصوصاً ، ثم ذكر التعليم عموماً وخصوصاً ، فالخط يطابق اللفظ ، واللفظ يطابق العلم ، والعلم هو المطابق للمعلوم .

ومن هنا غلط من غلط ، فظن أن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق ، فظن أن قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : ٧٧ ، ٧٨] كقوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] فجعل إثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كإثبات الرسول في المصاحف ، وهذا غلط ؛ إثبات القرآن كإثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام ، وأما إثبات اسم الرسول فهذا كإثبات الأعمال ، أو كإثبات القرآن في / زبر الأولين ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٦] فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ؛ ولهذا قيد - سبحانه - هذا بلفظ «الزبر» و«الكتب» زبر . يقال : زبرت الكتاب : إذا كتبت ، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب ، فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل ولكن ذكره ، كما أن محمداً نفسه ليس عندهم ولكن ذكره ، فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم ، بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف ؛ فإن نفس القرآن أثبت فيها ، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا ، وهذا مبسوط في موضعه .

١٢/٢٩٠

والمقصود هنا أن نفس الموجودات وصفاتها إذا انتقلت من محل إلى محل حلت في ذلك المحل الثاني، وأما العلم بها والخبر عنها فيأخذها الثاني عن الأول مع بقائه في الأول، وإن كان الذي عند الثاني هو نظير ذلك ومثله، لكن لما كان المقصود بالعلمين واحداً في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه، ولم يكن للناس غرض في تعدد التابع، كما في الاسم مع المسمى؛ فإن اسم الشخص وإن ذكره أناس متعددون ودعا به أناس متعددون فالناس يقولون: إنه اسم واحد لمسمى واحد، فإذا قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، / أشهد أن محمداً رسول الله، وقال ذلك هذا المؤذن وهذا المؤذن، وقاله غير المؤذن، فالناس يقولون: إن هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله، كما أن المسمى هو الله ورسوله.

١٢/٢٩١

وإذا قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وقال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤١] وقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ففي الجميع المذكور هو اسم الله وإن تعدد الذكر والذاكر، فالخبر الواحد من المخبر الواحد من مخبره، والأمر الواحد بالمأمور به من الأمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسامه، هذا في المركب نظير هذا في المفرد، وهذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وإن تعدد من يذكر ذلك الاسم والخبر، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم.

وأما قول القائل: إن قلت: إن هذا نفس كلام الله فقد قلت بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد. مثاله مثال رجل ادعى أن النبي ﷺ يحل بذاته في بدن الذي يقرأ حديثه، فأنكر الناس ذلك عليه، وقالوا: إن النبي ﷺ لا يحل في بدن غيره، فقال: أنتم تقولون: إن المحدث يقرأ كلامه، وأن ما يقرؤه هو كلام النبي ﷺ، فإذا قلت ذلك فقد قلت بالحلول، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد.

١٢/٢٩٢

/ والناس متفقون على إطلاق القول بأن كلام زيد في هذا الكتاب وهذا الذي سمعناه كلام زيد، ولا يستجيز العاقل إطلاق القول بأنه هو نفسه في هذا المتكلم، أو في هذا الورق. وقد نطقت النصوص بأن القرآن في صدور كقول النبي ﷺ: «استذكروا القرآن، فلَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ فِي عُقْلِهَا»^(١)، وقوله: «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الحَرَبِ»^(٢) وأمثال ذلك، وليس هذا عند عاقل مثل أن يقال: الله في صدورنا وأجوافنا؛ ولهذا لما ابتدع شخص - يقال له: الصوري - بأن من قال: القرآن في صدورنا، فقد قال بقول النصارى، فقيل لأحمد: قد جاءت جهمية رابعة - أي: جهمية الخلقية، واللفظية، والواقفية، وهذه الرابعة - اشتد نكيره لذلك، وقال: هذا

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ١٢٧.

أعظم من الجهمية . وهو كما قال .

فإن الجهمية ليس فيهم من ينكر أن يقال: القرآن في الصدور، ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلول إلا من هو في غاية الضلالة والجهالة؛ فإن النصارى يقولون: الأب والابن وروح القدس إله واحد، وأن الكلمة التي هي اللاهوت تدرعت (١) الناسوت، وهو عندهم إله يخلق ويرزق؛ ولهذا كانوا يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، ويقولون: المسيح ابن الله؛ ولهذا كانوا متناقضين، فإن الذي تدرع المسيح إن كان هو الإله الجامع للأقنيم فهو الأب نفسه، وإن كان هو صفة من / صفاته فالصفة لا تخلق ولا ترزق وليست إلهاً، والمسيح عندهم إله، ولو قال النصارى: إن كلام الله في صدر المسيح كما هو في صدور سائر الأنبياء والمؤمنين لم يكن في قولهم ما ينكر.

١٢/٢٩٣

فالحلولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر، كما قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة أتباع المشايخ، أو يقولون بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية أنه بذاته في كل مكان، وهو - سبحانه - ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وكذلك من قال باتحاده بالمسيح أو غيره، أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها، أو قال: وجوده وجود المخلوقات أو نحو ذلك.

فأما قول القائل: إن كلام الله في قلوب أنبيائه وعباده المؤمنين، وإن الرسل بلغت كلام الله، والذي بلغته هو كلام الله، وإن الكلام في الصحيفة ونحو ذلك، فهذا لا يسمى حلولاً، ومن سماه حلولاً لم يكن بتسميته لذلك مبطلاً للحقائق. وقد تقدم أن ذلك لا يقتضي مفارقة صفة المخلوق له وانتقالها إلى غيره، فكيف صفة الخالق - تبارك وتعالى - ؟!

ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس في إثبات لفظ الحلول ونفيه عنه، هل يقال: إن كلام الله حال في المصحف أو حال في الصدور؟ وهل يقال: كلام الناس المكتوب حال في المصحف أو حال في قلوب حافظيه ونحو ذلك؟ فمنهم طائفة نفت الحلول كالقاضي / أبي يعلى وأمثاله وقالوا: ظهر كلام الله في ذلك ولا نقول: حل؛ لأن حلول صفة الخالق في المخلوق، أو حلول القديم في المحدث ممتنع. وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال في المصحف كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي - الملقب بشيخ الإسلام - وغيره، وقالوا: ليس هذا هو الحلول المحذور الذي نفينا، بل نطلق القول بأن الكلام في

١٢/٢٩٤

(١) أي: دخلت في الناسوت. انظر: القاموس، مادة «درع».

الصحيفة ولا يقال بأن الله في الصحيفة أو في صدر الإنسان، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال في ذلك دون حلول ذاته، وطائفة ثالثة كأبي علي بن أبي موسى وغيره قالوا: لا نطلق الحلول نفيًا ولا إثباتًا لأن إثبات ذلك يوهم انتقال صفة الرب إلى المخلوقات ونفي ذلك يوهم نفي نزول القرآن إلى الخلق فنطلق ما أطلقته النصوص ونمسك عما في إطلاقه محذور لما في ذلك من الإجمال.

وأما قول القائل: إن قلت: إن هذا نفس كلام الله فقد قلت بالحلول، وإن قلت غير ذلك، قلت بمقاتلتنا، فجواب ذلك: أن المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور، فإذا زالت لم يبق منكرًا:

أحدها: من يقول: إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد، والله خلقه في غيره.

الثاني: قول من يقول: إن كلام الله ليس إلا معنى واحدًا هو / الأمر والنهي والخبر، وأن الكتب الإلهية تختلف باختلاف العبارات لا باختلاف المعاني فيجعل معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحدًا، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي، كمن يقول: إن معاني أسماء الله الحسنى بمعنى واحد، فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد، فهذا إحداد في أسمائه وصفاته وآياته.

الثالث: قول من يقول: إن ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله، وإن القرآن كلام التالين لا كلام رب العالمين. فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها.

وأما قول من قال: إن القرآن العربي كلام الله، بلغه عنه رسول الله ﷺ، وأنه تارة يسمع من الله، وتارة من رسله مبلغين عنه، وهو كلام الله حيث تصرف، وكلام الله تكلم به لم يخلقه في غيره، ولا يكون كلام الله مخلوقًا، ولو قرأه الناس وكتبوه وسمعوه. وقال مع ذلك: إن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه، وإذا نفى الحلول وأراد به أن صفة الموصوف لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فقد أصاب في هذا المعنى، لكن عليه مع ذلك أن يؤمن أن القرآن العربي كلام الله - تعالى - وليس هو ولا شيء منه كلامًا لغيره، ولكن بلغته عنه رسله، وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه، ومع العلم بأن شيئًا من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا في كلام الخالق أولى وأظهر. والله أعلم.

/ وقال أيضا شيخ الإسلام - قدس الله روحه :

فصل

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وهو منزل من الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] . فأخبر - سبحانه - أنهم يعلمون ذلك، والعلم لا يكون إلا حقًا.

وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، الجاثية: ٢، [الأحقاف: ٢]، ﴿حَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢]، ﴿حَمَّ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] ونحو ذلك، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ / مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] . فأخبر - سبحانه - أنه منزل من الله، ولم يخبر عن شيء أنه منزل من الله إلا كلامه؛ بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك.

ولهذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فإن من قال: إنه مخلوق يقول: إنه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها، فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ لم ينزل من الله، فأخبار الله - تعالى - أنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله؛ ولهذا فسر الإمام أحمد قوله: «منه بدأ» أي: هو المتكلم به. وقال أحمد: كلام الله من الله ليس ببائن عنه.

وأيضًا، فلو كان مخلوقًا في غيره لم يكن كلامه، بل كان يكون كلامًا لذلك المخلوق فيه، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الإرادة والمحبة والمشية والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور، لو كان مخلوقًا في غيره لم يكن الرب - تعالى - متصفاً به، بل كان يكون صفة لذلك المحل؛ فإن المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره، فيمتنع أن يكون المخلوق أو الخالق موصوفًا بصفة موجودة قائمة بغيره؛ لأن ذلك فطري، فما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم

يقم به، وهذا مبسوط في مواضع آخر.

١٢/٢٩٨

/ ولم يقل السلف: إن النبي سمعه من الله - تعالى - كما يقول ذلك بعض المتأخرين، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن». قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال: «حسبك»، فنظرت فإذا عيناه تذرفان من البكاء (١).

والنبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله - تعالى - كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠١، ١٠٢] فأخبر - سبحانه - أنه نزله روح القدس - وهو الروح الأمين، وهو جبريل - من الله بالحق، ولم يقل أحد من السلف: إن النبي ﷺ سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين.

١٢/٢٩٩

/ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]، هو كقوله تعالى: ﴿تَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]، وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣] ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائكته؛ فإن لفظ نحن هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه، فالرب - تعالى - خلق الملائكة وغيرها، تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه، فهو - سبحانه - أحق باسم «نحن» و«فعلنا» ونحو ذلك من كل ما يستعمل.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يُعَالِجُ (٢) من التنزيل شدة وكان

(١) البخاري في التفسير (٤٥٨٢) وفي فضائل القرآن (٥٠٥٠، ٥٠٥٥، ٥٠٥٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٧/٨٠٠، ٢٤٨) وأبو داود في العلم (٣٦٦٨) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٢٥) والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٠٥) وابن ماجه في الزهد (٤١٩٤).

وقوله: «تذرفان»: أي تدمعان. انظر: النهاية ١٥٩/٢.

(٢) أي: يحصل له ألم. انظر: القاموس، مادة «علاج».

يعحرك شفتيه، فقال ابن عباس: أنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد بن جبير: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧] قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] فإذا قرأه رسولنا، وفي لفظ: فإذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] أي نقرؤه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه (١).

١٢/٣٠٠

/ وقد بين الله - تعالى - أنواع تكليمه لعباده في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] فبين - سبحانه - أن التكليم تارة يكون وحياً، وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى، وتارة يرسل رسولاً فيوحى الرسول بإذن الله ما يشاء، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فإذا أرسل الله - تعالى - رسولاً كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] وإنما نبأهم بواسطة الرسول والرسول مبلغ به، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

والرسول أمر أمته بالتبليغ عنه. ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (٢)، وقال ﷺ: «لَا خُطْبَ الْمُسْلِمِينَ - : «لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» (٣)، وقال ﷺ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنْهَا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعِهِ، فَرُبَّ حَامِلٍ غَيْرِ فَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقَهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» (٤)، / وفي السنن عن جابر قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لِأَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي؟ فَإِنْ قَرِيشًا مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي» (٥).

١٢/٣٠١

وكما لم يقل أحد من السلف: إنه مخلوق، فلم يقل أحد منهم: إنه قديم، لم

(١) البخاري في بدء الوحي (٥) ومسلم في الصلاة (١٤٨/٤٤٨).

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٤٦١) والترمذي في العلم (٢٦٦٩).

(٣) البخاري في العلم (٦٧) ومسلم في القسامة (٢٩/١٦٧٩).

(٤) سبق تخريجه ص ٥٧. (٥) سبق تخريجه ص ٣٣.

يقول واحداً من القولين أحد من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا من بعدهم من «الأئمة الأربعة» ولا غيرهم، بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله. ولما ظهر من قال: إنه مخلوق، قالوا ردًا لكلامه: إنه غير مخلوق، ولم يريدوا (١) بذلك أنه مفترى، كما ظنه بعض الناس، فإن أحدًا من المسلمين لم يقل: إنه مفترى، بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم، وإنما قالوا: إنه مخلوق، خلقه الله في غيره، فرد السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك، وصنف في ذلك مصنفات متعددة، وقالوا: منه بدأ وإليه يعود.

وأول من عرف أنه قال: مخلوق: الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان، وأول من عرف أنه قال: هو قديم: عبد الله بن سعيد بن كلاب، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول.

فمنهم من قال: الكلام معنى واحد قائم بذات الرب، ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض، والقرآن العربي لم يتكلم الله به، / بل هو مخلوق خلقه في غيره. وقال جمهور العقلاء: هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار. فإنه من المعلوم بصريح العقل أن معنى «آية الكرسي» ليس معنى «آية الدين» ولا معنى «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» [الإخلاص: ١] معنى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» [المسد: ١]، فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة، وخطابه لملائكته، وحسابه لعباده يوم القيامة، وغير ذلك من كلامه!؟

ومنهم من قال: هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته، لم يزل ولا يزال موصوفًا بها.

وكلا الحزبين يقول: إن الله - تعالى - لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا إبراهيم، يا أيها المزمّل، يا أيها المدثر، كما قد بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين. ولم يقل أحد من السلف: إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلًا عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يقرؤونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مخلوق.

(١) في المطبوعة: «يريدون» وهو خطأ.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسافروا / بالقرآن إلى أرض العدو»^(١)، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري، والصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارئ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٢)، فبين أن الأصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله؛ ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة: يحسنه الإنسان بصوته، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: لو علمت أنك تسمع لحبته لك تحبيراً^(٣).

فكان ما قاله أحمد وغيره من أئمة السنة من أن الصوت صوت العبد موافقاً للكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ففرق - سبحانه - بين المداد الذي تكتب به كلماته وبين كلماته، فالبحر وغيره من المداد الذي يكتب به الكلمات / مخلوق وكلمات الله غير مخلوقة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، فالأبحر إذا قدرت مداداً تنفذ، وكلمات الله لا تنفذ؛ ولهذا قال أئمة السنة: لم يزل الله متكلماً كيف شاء وبما شاء، كما ذكرت الآثار بهذه المعاني عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما.

هذا وقد أخبر - سبحانه - عن نفسه بالنداء في أكثر من عشرة مواضع، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]، ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وذكر - سبحانه - نداءه لموسى - عليه السلام - في سورة «طه» و«مريم» وال «طس الثلاث» وفي سورة «النازعات» وأخبر أنه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي

(١) سبق تخريجه ص ١٢٧ . (٢) سبق تخريجه ص ٣٣ .

(٣) الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٦٢ ، ٣٦٣) وقال: «رواه الطبراني ورجاله على شرط الصحيح غير خالد ابن نافع الأشعري وثقه ابن حبان وضعفه جماعة» .

البَقْعَةُ الْمُبَارَكَةُ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ [القصص: ٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [التازعات: ١٥ ، ١٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص: ٤٦] .

واستفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه - سبحانه - ينادي بصوت ، نادى موسى ، / وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال: إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف ، كما لم يقل أحد منهم : إن الصوت الذي سمعه موسى قديم ، ولا أن ذلك النداء قديم ، ولا قال أحد منهم : إن هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذي تكلم الله به ، بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذي يتكلم الله به وبين أصوات العباد .

وكان أئمة السنة يعدون من أنكر تكلمه بصوت من الجهمية ، كما قال الإمام أحمد لما سئل عنمن قال: إن الله لا يتكلم بصوت ، فقال: هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل . وذكر بعض الآثار المروية في أنه - سبحانه - يتكلم بصوت . وقد ذكر من صنف في السنة . . . (١) من ذلك قطعة ، وعلى ذلك ترجم عليه البخاري في صحيحه بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبا: ٢٣] (٢) وقد ذكر البخاري في كتاب «خلق الأفعال» مما يبين به الفرق بين الصوتين آثاراً متعددة . وكانت محنة البخاري مع أصحابه محمد بن يحيى الذهلي وغيره بعد موت أحمد بسنين ، ولم يتكلم أحمد في البخاري إلا بالثناء عليه ، ومن نقل عن أحمد أنه تكلم في البخاري بسوء فقد افترى عليه .

١٢/٣٠٥ / وقد ذكر الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي في كتابه الذي سماه : «الفصول في الأصول» قال : سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول: سمعت أبا حامد الإسفرائيني يقول: مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار: أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال: مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعاً من الله ، والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ وهو الذي نزلوه نحن بالسنتنا ، وفيما بين الدفتين ، وما في صدورنا ؛ مسموعاً ، ومكتوباً ، ومحفوظاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال: مخلوق فهو كافر ، عليه لعائن الله والناس أجمعين .

(١) يياض بالأصل .

(٢) البخاري معلقاً ، الفتح ٥٣٧/٨ .

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين إلى السنة تنازعوا في اللفظ بالقرآن، هل يقال: إنه مخلوق؟ ولما حدث الكلام في ذلك أنكرت أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره أن يقال: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق، وقالوا: من قال: إنه مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: إنه غير مخلوق، فهو مبتدع. وأما صوت العبد فلم يتنازعوا أنه مخلوق؛ فإن المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام إنما بلغ غيره، كما يقال: روى الحديث بلفظه، وإنما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام.

و «اللفظ» في الأصل: مصدر لفظ يلفظ لفظاً، وكذلك «التلاوة / والقراءة» مصدران، لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو، وهو المراد باللفظ في إطلاقهم، فإذا قيل: لفظي أو اللفظ بالقرآن مخلوق، أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق، وإذا قيل: لفظي غير مخلوق أشعر أن شيئاً مما يضاف إليه غير مخلوق، وصوته وحركته مخلوقان، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق، و «التلاوة» قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها حركة العبد، وقد يراد بها مجموعهما. فإذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو، وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو، وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام، فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره.

١٢/٣٠٧

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد، وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات الباري - تعالى - بل الذي كانوا عليه أن القرآن كلام الله، تكلم الله به بحروفه ومعانيه، ليس شيء منه كلاماً لغيره، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما، بل قد كفر الله من جعله قول البشر، مع أنه - سبحانه - أضافه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدْكُرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣]، فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال تعالى: / ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ١٩-٢٧]. فالرسول هنا جبريل.

١٢/٣٠٨

وأضافه - سبحانه - إلى كل منهما باسم رسول؛ لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئاً لم يكن رسولا فيما أحدثه، بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه، وهو - سبحانه - يضيفه إلى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة، فلو كانت الإضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران؛ فإن

إنشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له . وقد كفر الله - تعالى - من قال : إنه قول البشر ، فمن قال : إن القرآن أو شيئاً منه قول بشر أو ملك ، فقد كذب ، ومن قال : إنه قول رسول من البشر ومن الملائكة ، بلغه عن مرسله ليس قولاً أنشأه ، فقد صدق ، ولم يقل أحد من السلف : إن جبريل أحدث ألفاظه ولا محمداً ﷺ ، ولا أن الله - تعالى - خلقها في الهواء أو غيره من المخلوقات ، ولا أن جبريل أخذها من اللوح المحفوظ ، بل هذه الأقوال هي من أقوال بعض المتأخرين .

وقد بسط الكلام في غير هذا الموضوع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا في الكتاب وبين فساد أقوالهم ، وأن القول السديد هو قول / السلف وهو الذي يدل عليه النقل ١٢/٣٠٩ الصحيح والعقل الصريح ، وإن كان عامة هؤلاء المختلفين في الكتاب لم يعرفوا القول السديد قول السلف ، بل ولا سمعوه ، ولا وحدوه في كتاب من الكتب التي يتداولونها ؛ لأنهم لا يتداولون الآثار السلفية ولا معاني الكتاب والسنة إلا بتحريف بعض المحرفين لها ؛ ولهذا إنما يذكر أحدهم أقوالاً مبتدعة ؛ إما قولين ، وإما ثلاثة ، وإما أربعة ، وإما خمسة ، والقول الذي كان عليه السلف ودل عليه الكتاب والسنة لا يذكره ؛ لأنه لا يعرفه ؛ ولهذا تجد الفاضل من هؤلاء حائراً مقرباً بالحيرة على نفسه وعلى من سبقه من هؤلاء المختلفين ؛ لأنه لم يجد فيما قالوه قولاً صحيحاً .

وكان أول من ابتدع الأقوال «الجهمية المحضة النفاة» الذين لا يثبتون الأسماء والصفات ، فكانوا يقولون أولاً : إن الله - تعالى - لا يتكلم ، بل خلق كلاماً في غيره ، وجعل غيره يعبر عنه ، وأن قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء : ١٠] وقول النبي ﷺ : «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقي ثلث الليل ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟» (١) معناه : أن ملكاً يقول ذلك عنه ، كما يقال : نادى السلطان ، أي أمر منادياً ينادي عنه ، فإذا تلا عليهم ما أخبر الله - تعالى - به عن نفسه من أنه يقول ويتكلم . قالوا : هذا مجاز ؛ كقول العربي :

١٢/٣١٠

/ امتلاً الحوض وقال : قطني

وقالت (٢) : اتساع بطنه ، ونحو ذلك .

فلما عرف السلف حقيقته ، وأنه مضاء لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون : إن الله - تعالى - لم يتكلم ، وإنما أضافت الرسل إليه الكلام بلسان الحال كفروهم وبينوا ضلالهم ،

(١) البخارى فى التهجد (١١٤٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (١٦٨/٧٥٨) .

(٢) هكذا بالأصل .

ومما قالوا لهم: إن المنادي عن غيره - كمنادي السلطان - يقول: أمر السلطان بكذا، خرج مرسومه بكذا، لا يقول: إني أمركم بكذا وأنهاكم عن كذا، والله - تعالى - يقول في تكليمه لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] ويقول تعالى - إذا نزل ثلث الليل الغابر-: « من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟»^(١)، وإذا كان القائل ملكا قال - كما في الحديث الذي في الصحيحين -: « إذا أحب الله العبد نادى في السماء: يا جبريل، إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، وينادي في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض»^(٢)، فقال جبريل في نداءه عن الله تعالى: «إن الله يحب فلانا فأحبه»، وفي نداء الرب يقول: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟».

١٢/٣١١ / فإن قيل: فقد روى أنه يأمر مناديا فينادي، قيل: هذا ليس في الصحيح، فإن صح أمكن الجمع بين الخبرين بأن ينادي هو ويأمر مناديا ينادي، أما أن يعارض بهذا النقل النقل الصحيح المستفيض الذي اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول، مع أنه صريح في أن الله تعالى هو الذي يقول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟» فلا يجوز.

وكذلك جهّم كان ينكر أسماء الله - تعالى - فلا يسميه شيئاً ولا حياً ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز، قال: لأنه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهاً، وكان جهّم «مجبوراً» يقول: إن العبد لا يفعل شيئاً؛ فلهذا نقل عنه أنه سمي الله قادراً؛ لأن العبد عنده ليس بقادر.

ثم إن المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جهّم، فأثبتوا أسماء الله - تعالى - ولم يثبتوا صفاته، وقالوا: نقول: إن الله متكلم حقيقة، وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة؛ لثلا يضاف إليهم أنهم يقولون: إنه غير متكلم، لكن معنى كونه - سبحانه - متكلماً عندهم: أنه خلق الكلام في غيره، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء، لكن هؤلاء يقولون: هو متكلم حقيقة، وأولئك ينفون أن يكون متكلماً حقيقة. وحقيقة قول الطائفتين أنه غير / متكلم، فإنه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام، ولا مرید إلا من قامت به الإرادة، ولا محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيم إلا من قامت به الإرادة والمحبة والرضى والبغض والرحمة، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب في الفقه إلى أبي حنيفة من المعتزلة. وغيرهم

١٢/٣١٢

(١) سبق تخريجه ص ١٦٧ .

(٢) البخارى فى الأدب (٦٠٤٠) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٧/١٥٧) .

من أئمة المسلمين ليس فيهم من يقول بقول المعتزلة ، لا في نفي الصفات ، ولا في القدر ، ولا المنزلة بين المنزلتين ، ولا إنفاذ الوعيد .

ثم تنازع المعتزلة والكلابية في حقيقة « المتكلم » ، فقالت المعتزلة : المتكلم من فعل الكلام ولو أنه أحدثه في غيره ، ليقولوا : إن الله يخلق الكلام في غيره وهو متكلم به . وقالت الكلابية : المتكلم من قام به الكلام وإن لم يكن متكلماً بمشيئته وقدرته ، ولا فعلاً أصلاً ، بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحي الذي قامت به الحياة ، وإن لم تكن حياته بمشيئته ولا قدرته ولا حاصلة بفعل من أفعاله .

وأما السلف وأتباعهم وجمهور العقلاء فالتكلم المعروف عندهم من قام به الكلام ، وتكلم بمشيئته وقدرته . لا يعقل متكلم لم يقم به الكلام ، ولا يعقل متكلم بغير مشيئته وقدرته ، فكان كل من تينك الطائفتين المبتدعتين أخذت بعض وصف المتكلم ؛ المعتزلة أخذوا أنه فاعل ، والكلابية أخذوا أنه محل الكلام ، ثم زعمت المعتزلة أنه يكون فاعلاً للكلام في غيره ، وزعموا هم ومن وافقهم من أتباع الكلابية كأبي الحسن / وغيره أن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وكان هذا مما أنكره السلف وجمهور العقلاء ، وقالوا : لا يكون الفاعل إلا من قام به الفعل ، وأنه يفرق بين الفاعل والفعل والمفعول ، وذكر البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد » إجماع العلماء على ذلك .

١٢/٣١٣

والذين قالوا : إن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وقالوا مع ذلك : إن الله فاعل أفعال العباد كأبي الحسن وغيره ، وأن العبد لم يفعل شيئاً وأن جميع ما يخلقه العبد فعل له ، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته إلى صفات ذات وصفات أفعال ، مع أن الأفعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه ، فلزمهم أن يوصف بما خلقه من الظلم والقبائح مع قولهم : إنه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره ، فكان هذا تناقضاً منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ما هو من أصول أهل السنة ، وهو أن المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم ، نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعاقل ، فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد .

وأما السلف والأئمة فأصلهم مطرد ، وما احتجوا به على أن القرآن غير مخلوق ما احتج به الإمام أحمد وغيره من قول النبي ﷺ : « أعوذ بكلمات الله التامات » (١) . قالوا : والمخلوق لا يستعاذ به ، فعورضوا بقوله : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك / منك » (٢) ، فطرد السلف والأئمة أصلهم وقالوا : معافاته : فعله القائم به ، وأما العافية الموجودة في الناس فهي مفعوله .

١٢/٣١٤

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٥٤/٢٧٠٨ ، ٥٥) وأبو داود في الطب (٣٨٩٨) .

(٢) مسلم في الصلاة (٢٢٢/٤٨٦) وأبو داود في الصلاة (٨٧٩) .

وكذلك قالوا: إن الله خالق أفعال العباد، فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله، وهي نفس فعل العبد، وكان حقيقة قول أولئك نفي فعل الرب ونفي فعل العبد، فتسلط عليهم المعتزلة في «مسألة الكلام والقدر» تسلطاً بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة.

وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة، فإنه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال، ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق، ولا تجد الحق إلا موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقاً لصريح المعقول، فيكون ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ومن له قلب يعقل به وأذن يسمع بها، بخلاف الذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملئ: ١٠].

وقد وافق الكلابية على قولهم كثير من أهل الحديث والتصوف، ومن أهل الفقه المنتسبين إلى الأئمة الأربعة، وليس من الأئمة الأربعة / وأمثالهم من أئمة المسلمين من يقول بقولهم.

١٢/٣١٥

وحدث مع الكلابية ونحوهم طوائف أخرى من الكرامية وغير الكرامية من أهل الفقه والحديث والكلام فقالوا: إنه - سبحانه - متكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته، ليتخلصوا بذلك من بدعتي المعتزلة والكلابية، لكن قالوا: إنه لم يكن يمكنه في الأزل أن يتكلم، بل صار الكلام ممكناً له بعد أن كان ممنوعاً عليه، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه، وهذا القول مما وافق الكرامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث، لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم. وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة؛ فإن هؤلاء كلهم يقولون: إنه لم يكن الكلام ممكناً له في الأزل ثم صار ممكناً له بعد أن كان ممنوعاً عليه من غير حدوث سبب أوجب إمكانه، لكن الجهمية والمعتزلة يقولون: إنه خلق كلاماً في غيره من غير أن يقوم به كلام؛ لأنه لو قام به كلام بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث، قالوا: ولا تقوم به الحوادث. قالت الجهمية والمعتزلة: لأن الحوادث هي من جملة الصفات التي يسمونها الأعراض، وعندهم لا يقوم به شيء من الصفات، قالوا: لأن الصفات أعراض، والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس هو بجسم؛ لأن الجسم لا يخلو من الحوادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

/ وقالت الكلابية: بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث، ونحن لا نسمى الصفات أعراضاً؛ لأن العرض عندنا لا يبقى زمانين، وصفات الله - تعالى - باقية.

١٢/٣١٦

وقالوا: وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه ومن ضده، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

فقال الجمهور المتنازعون للطائفتين: أما قول أولئك: أنه لا تقوم به الصفات؛ لأنها أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس بجسم، فسمية ما يقوم بغيره عرضاً اصطلاح حادث، وكذلك تسمية ما يشار إليه جسماً اصطلاح حادث أيضاً، و«الجسم» في لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللغة، منهم الأصمعي وأبو عمرو، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف. والعرب تقول: هذا جسيم، وهذا أجسم من هذا، أي أغلظ منه، قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة، ويراد به الغليظ الكثيف.

وكذلك النُّظَّار يريدون بلفظ «الجسم» تارة المقدار، وقد يسمونه الجسم التعليمي، وتارة يريدون به الشيء المقدر، وهو الجسمي الطبيعي، والمقدار المجرد عن المقدر كالعدد المجرد عن المعدود، وذلك لا يوجد إلا / في الأذهان دون الأعيان. وكذلك السطح والخط والنقطة المجردة عن المحل الذي تقوم به لا يوجد إلا في الذهن. قالوا: وإذا كان هذا معنى الجسم بلغة العرب، فهو أخص من المشار إليه؛ فإن الروح القائمة بنفسها لا يسمونها جسماً، بل يقولون: خرجت روحه من جسمه، ويقولون: إنه جسم وروح، ولا يسمون الروح جسماً، ولا النفس الخارج من الإنسان جسماً، لكن أهل الكلام اصطلاحوا على أن كل ما يشار إليه يسمى جسماً، كما اصطلاحوا على أن كل ما يقوم بنفسه يسمى جوهراً، ثم تنازعوا في أن كل ما يشار إليه هل هو مركب من الجواهر الفردة، أو من المادة والصورة، أو ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا، على أقوال ثلاثة، قد بسطت في غير هذا الموضع؛ ولهذا كان كثير منهم يقولون: الجسم عندنا هو القائم بنفسه، أو هو الموجود لا المركب.

قال أهل العلم والسنة: فإذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات: إن الصفات لا تقوم إلا بجسم، والله - تعالى - ليس بجسم، قيل لهم: إن أردتم بالجسم ما هو مركب من جواهر فردة أو ما هو مركب من المادة والصورة لم نسلم لكم «المقدمة الأولى»، وهي قولكم: إن الصفات لا تقوم إلا بما هو كذلك، قيل لكم: إن الرب - تعالى - قائم بنفسه، والعباد يرفعون أيديهم إليه في الدعاء، ويقصدونه بقلوبهم، وهو العلي الأعلى - سبحانه - ويراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عياناً، كما يرون القمر ليلة / البدر، فإن قلتم: إن ما هو كذلك فهو جسم وهو محدث، كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع والعقل،

وإن قلتم : نحن نسمى ما هو كذلك جسمًا ونقول : إنه مركب ، قيل : تسميتكم التي ابتدعتموها هي من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ومن عمد إلى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسماها بأسماء منكرا لينفر الناس عنها ، قيل له : النزاع في المعاني لا في الألفاظ ، ولو كانت الألفاظ موافقة للغة ، فكيف إذا كانت من ابتداعهم؟ ومعلوم أن المعاني التي يعلم ثبوتها بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي الباطل .

وأما قولهم : إن كل ما كان تقوم به الصفات ، وترفع الأيدي إليه ، ويمكن أن يراه الناس بأبصارهم ، فإنه لا بد أن يكون مركبًا من الجواهر المفردة أو من المادة والصورة فهذا ممنوع ؛ بل هو باطل عند جمهور العقلاء ؛ من النظار والفقهاء وغيرهم ، كما قد بسط في موضعه .

قال الجمهور : وأما تفريق الكلاية بين المعاني التي لا تتعلق بمشيئته وقدرته ، والمعاني التي تتعلق بمشيئته وقدرته - التي تسمى الحوادث ، ومنهم من يسمى الصفات أعراضًا ؛ لأن العرض لا يبقى زمانين - فيقال : قول القائل : إن العَرَض - الذي هو السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك - لا يبقى زمانين قول محدث في الإسلام ، لم يقله أحد من السلف والأئمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع / الطوائف ، بل من الناس من يقول : إنه معلوم الفساد بالاضطرار ، كما قد بسط في موضع آخر .

١٢/٣١٩

وأما تسمية المسمى للصفات أعراضًا ، فهذا أمر اصطلاحى لمن قاله من أهل الكلام ، ليس هو عرف أهل اللغة ولا عرف سائر أهل العلم ، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لا يؤثر فيه اختلاف الاصطلاحات ، بل يعد هذا من النزاعات اللفظية ، والنزاعات اللفظية أصوبها ما وافق لغة القرآن والرسول والسلف ، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النطق به باتفاق المسلمين ، وما لم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه .

وأما قول الكلاية : ما يقبل الحوادث لا يخلو منها ، و ما لم يخل من الحوادث فهو حادث - فقد نازعهم جمهور العقلاء في كلا المقدمتين ، حتى أصحابهم المتأخرون نازعهم في ذلك ، واعترفوا ببطلان الأدلة العقلية التي ذكرها سلفهم على نفي حلول الحوادث به ، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الأشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وحدثت طائفة أخرى من السالية وغيرهم - ممن هو من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ، ومنهم كثير ممن هو ينتسب إلى / مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وكثر هذا

١٢/٣٢٠

في بعض المتأخرين المنتسبين إلى أحمد بن حنبل - فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلابية، وافقوا هؤلاء في قولهم: إنه قديم، ووافقوا أولئك في قولهم: إنه حروف وأصوات، وأحدثوا قولاً مبتدعاً - كما أحدث غيرهم - فقالوا: القرآن قديم، وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله - تعالى - أزلاً وأبداً.

واحتجوا على أنه قديم بحجج الكلابية، وعلى أنه حروف وأصوات بحجج المعتزلة. فلما قيل لهم: الحروف مسبوقة بعضها ببعض، فالباء قبل السين والسين قبل الميم، والقديم لا يسبق غيره، والصوت لا يتصور بقاؤه فضلاً عن قدمه، قالوا: الكلام له وجود وماهية، كقول من فرق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم. قالوا: والكلام له ترتيب في وجوده، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي في وجوده وهي مقارنة لها في ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان، وإن كانت متقدمة بالمرتبة كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض؛ فإن الكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله، ومع هذا فإذا كتبه كان أوله متقدماً بالمرتبة على آخره.

فقال لهم جمهور العقلاء: هذا مما يعلم فسادُه بالاضطرار؛ فإن الصوت لا يتصور بقاؤه، ودعوى وجود ماهية غير الموجود في الخارج دعوى / فاسدة، كما قد بسط في ١٢/٣٢١ موضع آخر، والترتيب الذي في المصحف هو ترتيب للحروف المدادية، والمداد أجسام، فهو كترتيب الدار والإنسان، وهذا أمر يوجد الجزء الأول منه مع الثاني، بخلاف الصوت فإنه لا يوجد الجزء الثاني منه حتى يعدم الأول كالحركة، فقياس هذا بهذا قياس باطل، ومن هؤلاء من يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه، ومنهم من يقول: يعني بالقديم أنه بدأ من الله، وأنه غير مخلوق، وهذا المعنى صحيح، لكن الذين نازعوا: هل هو قديم أو [ليس بقديم]، لم يعنوا هذا المعنى، فمن قال لهم: إنه قديم وأراد هذا المعنى، قد أراد معنى صحيحاً، لكنه جاهل بمقاصد الناس، مضل لمن خاطبه بهذا الكلام، مبتدع في الشرع واللغة.

ثم كثير من هؤلاء يقولون: إن الحروف القديمة والأصوات ليست هي الأصوات المسموعة من القراء ولا المداد الذي في المصحف، ومنهم من يقول: بل الأصوات المسموعة من القراء هو الصوت القديم، ومنهم من يقول: بل يسمع من القارئ شيئاً: الصوت القديم، وهو ما لا بد منه في وجود الكلام، والصوت المحدث، وهو ما زاد على ذلك، وهؤلاء يقولون: المداد الذي في المصحف مخلوق، لكن الحروف القديمة ليست هي المداد، بل الأشكال والمقادير التي تظهر بالمداد، وقد تنقش في حجر، وقد تحرق في ورق، ومنهم من يمنع أن يقال في المداد: إنه قديم أو / مخلوق، وقد يقول: ١٢/٣٢٢

لا أمنع عن ذلك بل أعلم أنه مخلوق، لكن أسد باب الخوض في هذا ، وهو مع هذا يهجر من يتكلم بالحق، ومن يبين الصواب الموافق للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، مع موافقته لصريح المعقول ، ومع دفعه للشناعات التي يشنع بها بعضهم على بعض.

وخوض الناس وتنازعهم في هذا الباب كثير، قد بسطناه في مواضع ، وإنما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يبين الأقوال السديدة التي دل عليها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة في مسألة الكلام، التي حيرت عقول الأنام، والله تعالى أعلم.

١٢/٣٢٣

/ سئل شيخ الإسلام مفتي الأنام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية عن قوم يقولون: كلام الناس وغيرهم قديم - سواء كان صدقاً أو كذباً، فحشاً أو غير فحش، نظماً أو نثراً - ولا فرق بين كلام الله وكلامهم في القدم إلا من جهة الثواب. وقال قوم منهم - بل أكثرهم - : أصوات الحمير والكلاب كذلك، ولما قرئ عليهم ما نقل عن الإمام أحمد ردّاً على قولهم تأولوا ذلك، وقالوا بأن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس .
فهل هؤلاء مصيبون أو مخطئون ؟ وهل على ولي الأمر - وفقه الله تعالى - زجرهم عن ذلك أم لا ؟ وهل يكفرون بالإصرار على ذلك أم لا ؟ وهل الذي نقل عن أحمد حق كما زعموا أم لا ؟

فأجاب - رضي الله عنه :

١٢/٣٢٤

الحمد لله، بل هؤلاء مخطئون في ذلك خطأ محرماً بإجماع المسلمين، وقد قالوا منكرًا من القول وزورًا، بل كفرًا ومحالًا يجب نهيم عنه، ويجب على ولاة الأمور عقوبة من لم يتنه منهم عن ذلك، جزاءً بما / كسبوا نكالاً من الله ؛ فإن هذا القول مخالف للعقل والدين مناقض للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين، وهي بدعة شنيعة، لم يقلها أحد قط من علماء المسلمين؛ لا علماء السنة ولا علماء البدعة، ولا يقولها عاقل يفهم ما يقول، ولكن عرض لمن قالها شبهة، ونحن نبينها إن شاء الله - تعالى .

ولا يحتاج في مثل هذا الكلام الذي فساده معلوم ببداية العقول أن يحتج له بنقل عن إمام من الأئمة إلا من جهة بيان أن رده وإنكاره منقول عن الأئمة، وأن قائله مخالف للأئمة مبتدع في الدين؛ ولتزلزل بذلك شبهة من يتوهم أن قولهم من لوازم قول أحد من السلف، ويعلم أنهم مخالفون لمذاهب الأئمة المقتدى بهم المعظمين؛ وليتبين أن نقيض قولهم منصوص عن الأئمة المتبعين في السنة، وليس ذلك مما سكتوا عنه نفيًا وإثباتًا.

١٢/٣٢٥

وأنه لا ريب أن الإمام أحمد بن حنبل، ومن قبله وبعده من الأئمة، نصوا على أن كلام الآدميين مخلوق - نصاً مطلقاً - بل نص أحمد وكثير من الأئمة على «أفعال العباد» عموماً وعلى «كلام الآدميين» خصوصاً، ولم يمتنعوا عن هذا الإطلاق لأجل الشبهة التي عرضت لهؤلاء المبتدعة المخالفين، حتى لا يقول قائل منهم أو من غيرهم: إنه لا يقال: مخلوق ولا غير مخلوق لأجل شبهتهم، أو لكون الكلام في / ذلك بدعة، بل القول بأن

كلام الآدميين مخلوق غير قديم، منصوص عن الأئمة المتفق على إمامتهم في الدين والسنة.

فمنهم من نص عليه لما تكلم في «مسائل القدر» و«خلق أفعال العباد»، ومنهم من نص عليه لما تكلم في «مسألة تلاوة العباد للقرآن واللفظ به».

ومنهم من نص عليه محتجاً به على الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق. فروى أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال - وهو الذي جمع نصوص أحمد في أصول الدين وأصول الفقه، وفي أبواب الفقه كلها، وفي الآداب والأخلاق والزهد والرقائق، وفي علل الحديث، وفي التاريخ وغير ذلك من علوم الإسلام - روى في «كتاب السنة» في الكلام على اللفظية عن أبي بكر بن زنجويه، قال:

سمعت أحمد بن حنبل يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع، لا يكلم.

قال الخلال: وأخبرنا أبو داود السجستاني قال: سمعت أبا عبد الله يتكلم في «اللفظية»، وينكر عليهم كلامهم، وسمعت إسحاق بن راهويه ذكر «اللفظية» وبدعهم. وقال الخلال: سمعت ابن صدقة قال: سمعت يحيى بن حبيب بن عربي قال: سمعت رجلاً سأل معتمر بن سليمان: إن لنا / إماماً قد رآنا أصلي خلفه؟ قال: من زعم أن لفظه غير مخلوق بمنزلة من زعم أن سماء الله غير مخلوقة.

١٢/٣٢٦

قال الخلال: وأخبرني أبو بكر المروزي، حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثني مُسَدَّد قال: كنت عند يحيى القطان وجاء يحيى بن إسحاق بن توبة العنبري، فقال له يحيى: حدث هذا - يعني مسدداً - كيف قال حماد بن زيد فيها - أي «مسألتنا»؟ فقال: سألت حماد بن زيد عن قال: كلام الناس ليس بمخلوق، فقال: هذا كلام أهل الكفر، وقال يحيى بن إسحاق: سألت معتمر بن سليمان عن قال: كلام الناس ليس بمخلوق، فقال: هذا كفر.

فهذه الآثار ونحوها مما اعتمد عليها المشهورون بالسنة كالمروزي والخلال وغيرهما، وكذلك الإمام أبو عبد الله بن بطة يعتمد في كتابه «الإبانة الكبير» على هذه الآثار ونحوها.

قلت: حماد بن زيد أحد الأئمة الأعلام في السنة، في طبقة مالك والثوري والأوزاعي وحماد بن سلمة والليث بن سعد في الزمان والإمامة، بل هو عند علماء السنة أقعد بالسنة من الثوري، وإن كان الثوري أكثر علماً منه وزهداً، وعند علماء الحديث أحفظ للحديث

من حماد بن سلمة، وإن كان حماد أشهر بالزهد وأكثر دعاء إلى السنة، وهو إمام البصرة في ذلك الزمان، الذي كانت البصرة فيه مجمع علم الإسلام، وكان علماء الأمة وورثة الأنبياء وخلفاء الرسل في ذلك العصر / الذي هو عصر تابعي التابعين، هؤلاء المسلمين ونحوهم وهم من القرن الثالث المدوح.

والمعتمر بن سليمان أحد الأئمة الأعلام - أيضاً - وهو دون حماد بن زيد، وقد أدركه الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهما، وهو أحد شيوخ الإمام أحمد، وأما حماد بن زيد ففات الإمام أحمد فقال: فاتني حماد بن زيد فعوضني الله بإسماعيل بن عليّة، وفاتني مالك بن أنس فعوضني الله سفيان بن عيينة.

وأما يحيى بن سعيد القطان فهو أحد علماء السنة وهو إمام أهل الحديث في معرفة صحته وعلله ورجاله وضبطه، حتى قال أحمد: ما رأيت بعيني مثله، يعني في ذلك الفن، وعنه أخذ ذلك علي بن المديني، وعن علي أخذ ذلك البخاري صاحب الصحيح، وقد ذكر الترمذي أنه لم ير في معرفة علل الحديث مثل محمد بن إسماعيل البخاري.

وهؤلاء العلماء الأئمة أنكروا على من قال: كلام الأدميين ولفظهم غير مخلوق، لما نبغت «القدرية» المبتدعة، وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله؛ لا أقوالهم ولا سائر أعمالهم؛ لا خيرها ولا شرها، بل يقولون: هي محدثة، أحدثها العبد، وليست مخلوقة لأحد، أو يقولون: العبد خلقها، كما أنه أحدثها؛ فإنهم قد يتنازعون في إثبات / خلق لغير الله، ومع هذا فلم يكن بين الأمة نزاع في أنها محدثة كائنة بعد أن لم تكن، ولم يقل أحد: إنها قديمة، ولكن «القدرية» من المعتزلة وغيرهم اعتقدوا أن الأفعال الاختيارية وما يتولد عنها من أفعال الملائكة والجن والإنس - الطاعات والمعاصي - لم يخلقها الله، قالوا: لأنه لو خلقها للزم أن يكون العبد مجبوراً، وأن يرتفع التكليف والوعد والوعيد والثواب والعقاب؛ ولأن العبد يعلم أنه هو الذي يحدث أفعاله علماً ضرورياً، وعللوا ذلك بأدلة نظرية.

فلما ابتدعوا هذه «المقالة» أنكروا أئمة السنة، كما أنكروا الصحابة - رضوان الله عليهم - أول هذه البدعة لما نبغت القدرية في أواخر عصر الصحابة، فرد عليهم ابن عمر، وابن عباس، ووائل بن الأسقع وغيرهم من الصحابة.

وبين الأئمة أن من جعل شيئاً من المحدثات - كأفعال العباد وغيرها - ليس مخلوقاً لله، فهو مثل من أنكّر خلق الله لغير ذلك من المحدثات كالسما والأرض؛ فإن الله رب العالمين، ومالك الملك، وخالق كل شيء، فليس شيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته، ولا

شيء من الملك خارجاً عن ملكه، ولا شيء من المحدثات خارجاً عن خلقه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٢] ، وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُهُ / الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠١ - ١٠٣] ، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تَوْفِكُونَ﴾ [غافر: ٦٢] ، وقال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَإِن تَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ . وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ١٧-٢١].

ولهذا كان أهل السنة والجماعة والحديث هم المتبعين لكتاب الله، المعتقدين لموجب هذه النصوص ، حيث جعلوا كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال المباشرة والمتولدة وكل حركة طبيعية أو إرادية أو قسرية، فإن الله خالق كل ذلك جميعه وربيه ومالكة ومليكه ووكيل عليه، وأنه - سبحانه - على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، فأمنوا بعلمه المحيط، وقدرته الكاملة ، ومشيتته الشاملة ، وربوبيته التامة؛ ولهذا / قال ابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيدة.

وأما صفة الله - تعالى - فهي داخلية في مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة فإذا قلت: عبدت الله، ودعوت الله، و ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذا الاسم لا يخرج عنه شيء من صفاته من علمه ورحمته وكلامه وسائر صفاته؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من كان حالقاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(١)، وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٢)، وقد ثبت عنه الحلف بعزة الله، والحلف بقوله: «لعمركم الله»، فعلم أن ذلك ليس حلقاً بغير الله، فأعطوا هذه الآيات المنصوصة حقها في اتباع عمومها الذي قد صرحت به، في أن الله خالق كل شيء؛ إذ قد علم أن الله ليس هو داخلاً في المخلوق، وعلم أن صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه.

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٧٩) ومسلم فى الإيمان (٣/١٦٤٦) .

(٢) أحمد ٣٤/٢ ، والترمذى فى النور (١٥٣٥) وقال: « حديث حسن » .

وأما المعتزلة ، الذين جمعوا التجهم والقدر فأخرجوا عنها ما يتناول الاسم يقيناً من أفعال الملائكة والجن والإنس والبهائم؛ طاعاتها وغير طاعاتها، وذلك قسط كبير من ملك الله وآياته، بل هي من محاسن ملكه وأعظم آياته ومخلوقاته، وأدخلوا في ذلك كلامه لكونه يسمى «شيئاً» في مثل قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١]، ولم ينظروا في أن ذلك مثل تسمية علمه «شيئاً» في قوله: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ / بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وتسمية نفسه «شيئاً» في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وأن قوله: ﴿كل شيء﴾ يعم بحسب ما اتصل به من الكلام.

١٢/٣٣١

فإن الاسم تنوع دلالاته بحسب قيوده. ففي قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ دخل في ذلك نفسه لأنها تصلح أن تعلم ، وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دخل في ذلك ما يصلح أن يكون مقدوراً، وذلك يتناول كل ما كانت ذاته ممكنة الوجود، وقد يقال: دخل في ذلك كل ما يسمى شيئاً بمعنى «م شيئاً» ، فإن «الشيء» في الأصل مقدر وهو بمعنى المشيء، فكل ما يصلح أن يشاء فهو عليه قدير، وإن شئت قلت: قدير على كل ما يصلح أن يقدر عليه، والممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء. وفي قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق ، وأنه لا يتناول الاسم، وإنما دخل فيه كل شيء مخلوق؛ وهي الحوادث جميعها.

هذا مع أن أهل السنة يقولون: إن العبد له مشيئة وقدرة وإرادة، وهو فاعل لفعله حقيقة، وينهون عن إطلاق «الجبر»؛ فإن لفظ «الجبر» يشعر أن الله أجبر العبد على خلاف مراد العبد، كما تجبر المرأة على النكاح ؛ وليس كذلك، بل العبد مختار يفعل باختياره ومشيئته ورضاه ومحبهته، ليس مجبوراً عديم الإرادة، والله خالق هذا / كله؛ فإن هذه الأمور من المحدثات الممكنات، فالدلالة على أن الله خالقها كالدلالة على أنه خالق غيرها من المحدثات، وليس هذا موضع الكلام على هذا، فإن ذلك له موضع آخر.

١٢/٣٣٢

وإنما الغرض هنا أن الأئمة ردوا على من جعل أقوال العباد وأفعالهم خارجة عن خلق الله، وجعلوا ذلك بمنزلة من جعل السماء والأرض ليس مخلوقة لله. هذا مع أن أولئك المتدعين كانوا يقولون: إنها محدثة ليست قديمة، فكيف إذا قيل: إنها قديمة؟! فإن ذلك يصير ضلالين بل ثلاث ضلالات:

أحدها: جعل المحدث المصنوع صفة لله قديمة، مضاهاة للنصاري ونحوهم.

والثاني: إخراج مخلوق الله ومقدوره عن خلقه وقدرته، كما قالته القدرية، مضاهاة

والثالث: إخراج فعل العبد ومقدوره، وكسبه عن أن يكون مقدوراً له وكسباً وفعلاً، مضاهاة للجبرية القدرية المشركية ، فهذا كان وجه كلام أولئك الأئمة في هذا.

ثم لما حدثت بدعة «اللفظية» احتج أئمة ذلك العصر في جملة / ما احتجوا به بكلام أولئك السلف مثل البخاري الإمام صاحب الصحيح، ومثل أبي بكر المروزي الإمام صاحب الإمام أحمد بن حنبل، وخلق كثير في زمنه، ومثل أبي بكر الخلال ونحوه، فاستدل هؤلاء الأئمة وغيرهم على بطلان قول من يقول: إن فعل العبد أو صفاته المتعلقة بصفات الله غير مخلوقة بما دل على أن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة، فروى البخاري عن أبي قدامة عن يحيى بن سعيد القطان قال: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة. وروى المروزي صاحب الإمام أحمد والخلال ما تقدم ذكره من كلام الأئمة من النص على خلق كلام الأدميين وأفعالهم.

وسياتي إن شاء الله نصوص الإمام أحمد في ذلك، فإن القصد هنا التنبيه على الأصل الذي تشعب منه تفرق الأمة في هذا الموضع وهو «مسألة اللفظ».

فصل

و«مسألة اللفظ بالقرآن» قد اضطرب فيها أقوام لهم علم وفضل ودين وعقل، وجرت بسببها مخاصمات ومهاجرات بين أهل الحديث والسنة، حتى قال ابن قتيبة كلاماً معناه :
لم يختلف أهل الحديث في شيء من / مذاهبتهم إلا في «مسألة اللفظ». و بين أن سبب ذلك لما وقع فيها من الغموض، والنزاع بينهم في كثير من المواضع لفظي ، ولم يكن بين الناس نزاع في أن كلام العباد الذي لم ينزله الله - تعالى - أنه محدث مخلوق، وإن كان الكلام في «حروف الهجاء» وفي «أسماء المحدثات» فيه نزاع، هو الذي أوقع هؤلاء الجهال فيما ارتكبوه من المحال ، كما سننبه عليه - إن شاء الله تعالى .

ولا يتسع هذا الجواب لشرح «مسألة اللفظ» مبسوطاً، ولكن ننبه عليه مختصراً فنقول :
إن الله - تعالى - أرسل رسله وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم أن يبلغوا إلى الناس ما أنزل الله عليهم من وحيه وكلامه، فمن الناس من آمن بالله ورسله وصدقهم فيما جاءوا به من عند الله وأطاعهم فيما أمروا به. وهؤلاء هم المؤمنون في كل وقت وزمان، وهم أهل الجنة والسعادة، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ٦٢﴾.

ومن الناس من كفر بهم وكذب، مثل الأمم الذين قص الله علينا أخبارهم من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون / ومشركي العرب، وكل من لم يؤمن بأصل الرسالة من الهند والبراهمة وغيرهم، والترك والسودان، وغيرهم من الأمم الأميين الذين لا كتاب لهم - سواء كانوا مكذبين للرسول أو معرضين عن اتباعهم ؛ فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله حسداً أو كبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، وإن كان الكافر المكذب أعظم كفراً، وكذلك الجاحد المكذب حسداً مع استيقان صدق الرسل، والسور المكية كلها خطاب مع هؤلاء.

ولهذا يقول - سبحانه - : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿ الشعراء: ١٠٥ ﴾ ؛ لأنهم كذبوا جميع الرسل ولم يؤمنوا بأصل الرسالة، وقد قال تعالى - لما أهبط أباهم آدم - : ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى . وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

فأخبر أنه إذا أتاهم هدى منه، وهو ما أنزله على رسله من الذكر، فمن اتبعه اهتدى وسعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنه شقى وعمى ؛ ولهذا قال في أوائل البقرة في نعت المؤمنين : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ [البقرة: ٥] ، كما قال هنا : ﴿ فلا يضل ولا يشقى ﴾ ؛ فإن الهدى ضد الضلال ، والفلاح ضد الشقاء ، وقال تعالى : ﴿ يا بني آدم إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رِيسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض ، كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض ، واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى ، أو موسى والمسيح معه دون محمد ﷺ ؛ ولهذا يخاطب الله في القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين ببعض الرسل ، كما في قوله : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران: ٢٠] ، وفي قوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ ﴾ [البينة: ١].

وكمّن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض، من الصابئين الفلاسفة ونحوهم؛ الذين قد يقرون بأصل الرسالة، لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل، الذي قد وضع قانوناً لقومه، أو يقولون: إن الرسالة للعامة دون الخاصة، أو في الأمور العملية دون العلمية، أو في الأمور التي يشترك فيها الناس دون الخصائص التي يمتاز بها الكُمَّل، / ويقرون برسالة محمد ﷺ من حيث الجملة، ويعظمونه، ويقولون: اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يرد إلى الأرض ناموس أعظم من ناموسه، لكنهم مع هذا يكفرون ببعض ما جاء به؛ مثل أن يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية، وقد يسوغون الشرك أيضاً للعامة أو للخاصة؛ مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتها والسجود لها، وقد يكذبون في الباطن بأشياء مما أخبر بها، ويزعمون أن ما أخبر به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضروبة لتفهم العامة ما لا يجوز إظهاره وإبانه حقيقته، وذلك أنهم يجوزون كذبه لمصلحة العامة بزعمهم.

١٢/٣٣٧

وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول، وأن من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه، ونحو ذلك من المقالات، وهذا الضرب ما زال موجوداً، لا سيما مع القرامطة الباطنية، من الإسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية، الذين كانوا يدعون الخلافة، ومع الخرمية، والمزدكية، وأمثالهم من الطوائف، وهؤلاء خواصهم أكفر من اليهود والنصارى، ومن الغالية الذين يقولون بالهية على ونحوه من البشر أو نبوته، وهم منافقون زنادقة، لكن في كثير من أتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسول لما لبسوا عليه أصل قولهم، أو وافقهم في قول بعضهم دون بعض، وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرفض، ومنهم / من ينتسب إلى التصوف، ومنهم من ينتسب إلى الكلام، ومنهم من يدخل مع الفقهاء في مذاهبهم.

١٢/٣٣٨

وهذا الضرب يكثر في الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الإسلام والتزامه، كما كانوا كثيرين في دولة الديلم والعبيديين ونحوهم، وكما يكثر في دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول؛ لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم؛ فإن هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض، لكنهم قد يرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب، أو يتبعون بعض ما جاء به، أو لا يتبعونه بحال، وهم في ذلك مقرون له ولأتباعه.

والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر - أيضاً - كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ

يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [النساء: ١٥٠-١٥٢] ، وقال تعالى - يخاطب أهل الكتاب - : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِكُمْ أَسَارَى تَفَادُوهُمْ / وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُونُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ [البقرة: ٨٥] ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿ [النساء: ٦٠ ، ٦١] ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿ [النساء: ٥١ ، ٥٢] .

١٢/٣٣٩

فدم الذين أوتوا قسطًا من الكتاب، لما آمنوا بما خرج عن الرسالة، وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها، كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية - جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم - على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله، وكما ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها، وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيرًا ممن يدعي الإسلام، ويتحلله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام / من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضًا، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم وديناهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا: إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، ونوفق بين «الدلائل الشرعية» و«القواطع العقلية» التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات، أو «الذوقية» التي هي في الحقيقة أوهام وخيالات ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿ إلى قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا لَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿ [النساء: ٦٣ - ٦٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿ إلى قوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا

١٢/٣٤٠

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴿ [النور: ٤٧-٥١]، الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴿ [البقرة: ٩١].

وقد ذم الله - سبحانه - أهل التفرق والاختلاف في الكتاب، الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ / بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴿ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿ [آل عمران:

١٢/٣٤١

١٠٥، ١٠٦]، قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُبِينٍ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿ [الروم: ٣٠ - ٣٢]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ . فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ / وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴿ [الشورى: ١٣-١٥].

١٢/٣٤٢

فأمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة، وأن يعدل بين الناس كلهم، فيعطي كل ذي حق حقه، ويمنع كل مبطل عن باطله؛ فإن القسط والعدل في جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به، وهو المقصود بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكْتَبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿ [الخ السورة [البقرة: ٢٨٥].

الجزئيات بالكليات العامة المسلمات، أو يدعي فيها العموم بنوع من قياس التمثيل.

ومعلوم أنه لا بد في كل قياس من قضية كلية، وعامة القضايا الكلية التي لهم فيها المطالب الإلهية لا يعلم كونها كلية عامة؛ إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذي قد يكون من أفسد القياس المقتضى لتشبيهه الله بخلقه، كما يقولون: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وليس معهم إلا تشبيه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطباع، كطبيعة الماء والنار، مع أن الواحد الذي يثبتونه في الإلهيات، وفي المنطق - أيضاً - الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو «الجنس» و«الفصل» لا حقيقة لها، ولا توجد إلا في الأذهان لا في الأعيان، وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع.

وبينا أن ما يثبتونه من العقلية التي هي «الجواهر العقلية» المجردة / عن المادة، وهي العقل والنفس، والمادة والصورة التي ليست بجسم ولا عرض، لا حقيقة لها في الخارج، وإنما تقدر في الأذهان، لا في الأعيان، وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذي يصفون به واجب الوجود، ومن الواحد الذي يجعلون الأنواع تتركب منه، وإنما يوجد في الأذهان لا في الأعيان؛ و«القياس العقلي» الذي يحتجون به لا بد فيه من قضية كلية.

والقياس نوعان: قياس الشمول وقياس التمثيل.

والناس متنازعون في مسمى «القياس»، فقيل: هو حقيقة في التمثيل مجاز في الشمول، كما ذكر ذلك أبو حامد، وأبو محمد المقدسي وغيرهما. وقيل: هو حقيقة في عكس ذلك، كما قاله ابن حزم وغيره من نفاة قياس التمثيل، وقيل: بل اسم القياس يتناولهما، وهذا قول جمهور الناس.

واسم «القياس العقلي» يدخل فيه هذا وهذا، لكن من الناس من ظن أن «قياس التمثيل» لا يفيد اليقين، ولا يستعمل في العقلية، كما ذهب إليه أبو المعالي، وأبو حامد، والرازي، وأبو محمد، والآمدي، وآخرون من أهل المنطق.

وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء، وهذا هو الصواب: فإن مآل القياسين إلى شيء واحد، وإنما يختلف بترتيب / الدليل؛ فإن القائل إذا قال: النبيذ المتنازع فيه حرام؛ لأنه مسكر، فكان حراماً قياساً على خمر العنب، فلا بد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم، وهو الذي يسمى في قياس التمثيل «مناطاً» و«علة» و«أمانة» و«مشاركاً» و«وضعا» ونحو ذلك.

ولابد في القياس الصحيح من أن يقيم دليلاً على أن السكر مناط التحريم، بحيث إذا

وجد السكر وجد التحريم، فإذا صاغ الدليل بقياس الشمول، فإن النبيذ مسكر وكل مسكر حرام، فالسكر في هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر، وهو العلة في قياس التمثيل، ولا بد له في هذا القياس من أن يثبت هذه القضية الكلية الكبرى، وهي قوله: كل مسكر حرام، فما به ثبتت هذه القضية في هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم في ذلك النظم لا فرق بينهما.

وإذا قال القائل: إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس، وهو جواب «سؤال المطالبة» وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم، وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية.

قيل له: وإثبات عموم القضية الكبرى في قياس الشمول هو عمدة القياس؛ فإن الصغرى في الغالب تكون معلومة، كما يكون ثبوت الوصف في الفرع معلوماً، وإذا كان ثبوت الوصف في الفرع قد يحتاج إلى دليل، كما قيل: تحتاج / المقدمة الصغرى إلى دليل، وإثبات المقدمة الكبرى لا يتأتى إلا بأدلة ظنية، ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق بينهما أصلاً، واستعمال كلا القياسين في الأمور الإلهية لا يكون إلا على وجه الأولى والأخرى.

وبهذه «الطريقة» جاء القرآن، وهي طريقة سلف الأمة وأئمتها؛ فإن الله - سبحانه - لا يماثله شيء من الموجودات في «قياس التمثيل»، ولا أن يدخل في «قياس الشمول» تماثل أفراده، بل ما ثبت لغيره من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به، وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه، كما قال تعالى: ﴿لَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضوع، وبيننا أن ما يستفاد بـ «القياس الشمولي» في عامة الأمور قد يستفاد بدون ذلك، فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة في القياس بدون معرفة حكم القضية الكلية، كما إذا قيل: الكل أعظم من الجزء، والضدان لا يجتمعان، فما من كل معين وضدين معينين إلا وإذا علم أن هذا جزء هذا، وأن هذا ضد هذا، علم أن هذا أعظم من هذا، وأن هذا لا يجمع هذا، / بدون أن يخطر بالبال قضية كلية أن كل ضدين لا يجتمعان، وأن كلَّ كلِّ فهو أعظم من جزء، وكذلك إذا قيل: النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فما من نقيضين يعرف أنهما نقيضان إلا ويعرف أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان، بدون أن يستحضر أن كل نقيضين لا يجتمعان، ولا يرتفعان.

فعامة المطالب يستغنى فيها عن القياس المنطقي المتضمن للكبرى الذي لا بد فيه من قضية كلية، والأمور المعينات لا تعلم بمجرد القياس العقلي، وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم يسلمون ذلك، وبيننا أن الأدلة الدالة على الصانع هي آيات تدل بنفسها على نفسه المقدسة، وبيننا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس، وأن الأدلة أكمل وأنفع، وطريقة القياس تابعة لها ودونها في المنفعة والكمال، والقرآن جاء بهذه وهذه، ومعرفة الإلهيات، و النبوات وغيرها، فتلك الطريقة أكمل وأتم.

وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطري إلا بطريقة القياس الذي لا بد فيه من قضية كلية، والقضية الكلية لا تفيد إلا أمراً كلياً عقلياً، لا تفيد معرفة شئ معين، وكل موجود فهو معين، فكيف يقول عاقل مع هذا : إنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق؟! ثم إنهم في ضلالهم يظنون أن علم الأنبياء، بل وعلم الرب - سبحانه - إنما حصل/ بواسطة القياس المنطقي، وأن النبي له قوة حدسية يظفر بالحد الأوسط في القياس المنطقي بدون معلم، فيكون أكمل من غيره، فيجعلون علمه بالغيب من هذا الباب ولم يدرك بمثل هذا القياس علوماً (١) طبيعية أو حسابية ونحو ذلك، فمن أين أنه لا ينال علم إلا به؟ ومن أين أنه لا مواد يقينية إلا ما يدعيه المدعى مما عنده من الحدسيات المعتادة الظاهرة والباطنة، والبدهييات المعتادة، والمتواترات، والمجربات المعتادة، والحدسيات المعتادة، والحس الباطن، والظاهر، والتجربة، ونحو ذلك لا يعلم بمجردة إلا أمر معين جزئي، وذلك لا يصلح أن يكون مقدمة في القياس، ولكن يعلم في العموم إما بواسطة قياس تمثيل، وإما بعلم ضروري يحدثه الله في القلب ابتداء، وإذا أحدث علماً ضرورياً عاماً لأفراد فإحداث العلم ببعض تلك الأفراد سهل، فقل أن يستفاد بطريقهم علم بنتيجة إلا والعلم بالنتيجة فيه ممكن بالطريق الذي به عرفت المقدمات أو أسهل، فلا يكون في قياسهم إلا زيادة تطويل وتهويل وتضليل.

١٢/٣٤٩

وقد بسطنا الكلام على «المنطق اليوناني» بما فيه من حق وباطل، ونافع وضار، في غير هذا الموضوع، ونفي العلم إلا بهذا القياس، ونفي كون القياس يقينياً إلا بهذه المقدمات قول بلا علم، وتكذيب بما لم يحط المكذب بعلمه؛ ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية «قياس الأولى» كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]؛ إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوى أفرادها، ولا يتمثلان في شئ من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال - لا نقص فيه بوجه - ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه، وأمثال هذه

١٢/٣٥٠

(١) في الطبوعة: «علوم» وهو خطأ.

« الأقيسة العقلية » التي من نوع الأمثال المضروبة في القرآن، ولله المثل الأعلى، وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع.

فلما كان الكفار بالرسالة على ما ذكر، جاء في الكفار ببعضها من مشاركتهم في بعض ذلك؛ فأنكرت الجهمية أن يكون الله يتكلم أو يقول أو يحب أو يبغض، وأنكروا سائر صفاته التي جاءت بها الرسل، فأنكروا بعض حقيقة الرسالة التي هي كلام الله، وأنكروا بعض ما في الرسالة من صفات الله.

وأول من أظهر ذلك في الإسلام - وإن كان ذلك موجوداً قبل الإسلام في أمم أخرى - الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان، وكان - على ما قيل - من أهل حران، وكان فيهم أئمة الفلاسفة، ومنهم تعلم أبو نصر الفارابي كثيراً مما تعلم من الفلسفة على ما ذكره عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، فضحى بالجعد خالد بن عبد الله القسري بواسطة على عهد علماء التابعين وغيرهم من علماء المسلمين، وهم بقايا التابعين في وقته؛ سئل الحسن البصري وغيره الذين حمدوه علي ما فعل، وشكروا ذلك فقال: أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم؛ فإني مضحجٌ بالجعد / بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً - تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً - ثم نزل فذبحه.

وبنوا ذلك على قاعدة مبتدعة الصابئين، المكذبين ببعض ما جاءت به الرسل، الذين لا يصفون الرب إلا بالصفات السلبية أو الإضافية أو المركبة منهما، وهم في هذا التعطيل موافقون في الحقيقة لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الصانع بالكلية؛ فإن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته؛ ولهذا وافقوا فرعون في تكذيبه لموسى بأن ربه فوق السموات، حيث قال: ﴿ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ كاذبًا ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، بخلاف محمد ﷺ الذي صدق موسى لما عرج به إلى ربه، وأخبر أنه وجد موسى هناك وأنه جعل يختلف بين ربه وبين موسى، فمحمد ﷺ صدق موسى في أن ربه فوق السموات، وفرعون كذبه في ذلك. والناس إما محمدي موسوي، وإما فرعوني؛ إذ فرعون كذب موسى في أن الله فوق، وكذبه في أن الله كلمه، كما أنكر وجود الصانع، ومحمد صدق موسى في هذا كله.

وهؤلاء الصابئة المحضة من المتفلسفة يقولون: إن الله ليس له كلام في الحقيقة، لكن كلامه - عند من أظهر الإقرار بالرسالة منهم - ما يفيض على نفوس الأنبياء، وهو أنه محدث في نفوسهم من غير أن / يكون في الخارج عن نفوسهم لله عندهم كلام، وهكذا كان الجهم يقول أولاً: إن الله لا كلام له، ثم احتاج أن يطلق أن له كلاماً لأجل المسلمين

فيقول: هو مجاز ؛ ولهذا كان الإمام أحمد وغيره من الأئمة يعلمون مقصودهم، وأن غرضهم التعطيل، وأنهم زنادقة، والزندق المنافق.

ولهذا تجد مصنفات الأئمة يصفونهم فيها بالزندقة، كما صنف الإمام أحمد «الرد على الزنادقة والجهمية»، وكما ترجم البخاري آخر كتاب الصحيح بـ «كتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية»، وكان عبد الله بن المبارك يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية.

وتقول الصابئة المحضة - الذين آمنوا في الظاهر وآمنوا في الباطن ببعض الكتاب -: كلام الله اسم لما يفيض على قلب النبي من «العقل الفعال» أو غيره، و «ملائكة الله» اسم لما يتشكل في نفسه من الصور النورانية. وقد يقولون: إن جبريل هو «العقل الفعال» أو هو ما يتمثل في نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم؛ ولهذا يقول هؤلاء: إن خاصة النبي التخيل، وإن الأنبياء أظهروا خلاف ما أبطنوه لمصلحة العامة، ولم يفيدوا بكلامهم علماً، لكن تخيلاً ينتفع به العامة، ويجعلون هذا من أفضل الأمور، ويمدحون الأنبياء بذلك، ويعظمونهم، / وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع أخر.

١٢/٣٥٣

وعندهم ليس خارجاً عن نفس النبي كلام ولا ملك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة والصابئة المشركين، وزعموا أنهم مؤمنون، وقالوا: إنهم يجمعون بين النبوة والفلسفة، كما يفعل الفارابي وابن سينا وغيرهما من المتفلسفة والقرامطة الباطنية من الإسماعيلية ونحوهم، الذين أخذوا معاني المتفلسفة الروم والفرس فأخرجوها في قالب التشيع والرفض، والإمامية والزيدية وغيرهم من الشيعة يعلمون أنهم كفار.

ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء، فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار، وأن شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، وعمرو بن عثمان الشبلي، والجنيدي بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي ونحوهم - رضي الله عنهم - كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء؛ فإن قول هؤلاء الزنادقة - وإن كان فيه إيمان من وجه آخر- فهؤلاء موافقون في الحقيقة لمقدمهم الوحيد الذي قال: «إِنَّ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ» [المدر: ٢٥]، لكن ذلك كفر به كله ظاهراً وباطناً، وهؤلاء قد يؤمنون به ظاهراً، وقد يؤمنون باطناً ببعض صفاته؛ من أنه مطاع عظيم، وأنه رئيس النوع الإنساني، وأن هذا الكلام الذي جاء به كلام عظيم القدر، صادر عن نفس صافية كاملة العلم والعمل، لها ثلاث خصائص تتفرد بها عن غيرها: خصيصة قوة الحدس والعلم، وخصيصة قوة التأثير في العالم السفلي بنفسه، وخصيصة

١٢/٣٥٤

قوة التخيل المطابق للحقائق، بحيث يسمع في نفسه الأصوات، ويرى من الصور ما يكون خيالاً للحقائق، وأنه يجوز إضافة كلامه إلى الله، وتسميته كلام الله، حيث هو أمر به أمراً خيالياً.

وفي الحقيقة عندهم ما يفيض على سائر النفوس الصافية من العلوم والكلمات هي - أيضاً - كلام الله مثل ما أنه كلام الله، لكن هو أشرف وخطابه دل على أنه رسول الخلق تجب عليهم طاعته، التي أخبرت بها الرسل لكن يطلقون عليه أنه متكلم ؛ ولهذا يقولون: إن النبوة مكتسبة، فطمع غير واحد منهم أن يصير نبياً كما طمع السهووردي وابن سبعين وغيرهما من الملحدين.

وقد بينا أصول أقوالهم وفسادها في غير هذا الموضع، مثل كلامنا على إبطال قولهم: إن معجزات الأنبياء قوى نفسانية.

وأما المعتزلة ونحوهم، فيوافقونهم في أن الله لا يتكلم في الحقيقة التي يعلم الناس أن صاحبها يتكلم، بل كلامه منفصل عنه، ويزعمون أن ذلك حقيقة، وليس كلامه عندهم إلا أنه خلق في الهواء أو غيره / أصواتاً يسمعونها من يشاء من ملائكته وأنبيائه من غير أن يقوم بنفسه كلام لا معنى ولا حروف، وهم يتنازعون في ذلك المخلوق: هل هو جسم أو عَرَض، أو لا يوصف بواحد منهما؟

١٢/٣٥٥

ولما ظهر هؤلاء تكلم السلف من التابعين وتابيعهم في تكفيرهم والرد عليهم بما هو مشهور عند السلف، واطلع الأئمة الخذاق من العلماء على أن حقيقة قول هؤلاء هو التعطيل والزندقة، وإن كان عوامهم لا يفهمون ذلك، كما اطلعوا على أن حقيقة قول القرامطة والإسماعيلية هو التعطيل والزندقة، وإن كان عوامهم إنما يدينون بالفرض، وجرت فتنة الجهمية، كما امتحنت الأئمة، وأقام الإمام أحمد - إمام السنة، وصدیق الأمة في وقته، وخليفة المرسلين، ووارث النبيين - فثبت الله به الإسلام والقرآن، وحفظ به على الأمة العلم والإيمان، ودفع به أهل الكفر والنفاق والطغيان، الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.

فاستقر أهل السنة وجماهير الأمة وأهل الجماعة وأعلام الملة - في شرقها وغربها - على الإيمان الذي جاءت به الرسل عن الله، وجاء به خاتم النبيين مصدقاً لما بين يديه من الكتاب و مهيمناً عليه، وهو أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله، وأن كلام الله لا يكون مخلوقاً منفصلاً عنه، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلاً عنه؛ فإن هذا جحود لكلامه الذي / هو رسالته، ودفع لحقيقة ما أنبأت به الرسل وعلمته أممهم، وإلحاد في أسماء الله وآياته، وتمثيل له بالمعدوم والموات؛ فإن الحياة والعلم والقدرة والكلام ونحو

١٢/٣٥٦

ذلك صفات كمال، والرب - تعالى - أحق بكل كمال، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه، كيف وهو خالق الكمال للكاملين.

وأيضاً، فمن لم يتصف بصفات الكمال؛ من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك، فإما أن يكون قابلاً للاتصاف بذلك ولم يتصف به، أو غير قابل للاتصاف به. فإن قبله ولم يتصف به كان موصوفاً بصفات النقص؛ كالموت والجهل والعمى والصمم والعجز والبكم باتفاق العقلاء؛ فإنهم متفقون على أن القابل لهذا ولهذا متى لم يتصف بأحدهما اتصف بالآخر. وإن قيل: إنه لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها، فالحيوان الذي يكون تارة سميماً وتارة أصم، وتارة بصيراً وتارة أعمى، وتارة متكلماً وتارة أخرس، أكمل من الجماد الذي لا يقبل أن يكون لا هذا ولا هذا.

فمن لم يصفه بصفات الكمال لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص؛ وذلك أن المتفلسفة / اصطلاحوا على تقسيم المتقابلين بالنفي والإثبات إلى النقيضين، وإلى ما يسمونه: العدم والملكية، فالعدم عندهم سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفاً به كالعمى والأخرس؛ فإنه عدم البصر والكلام عما من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً، فأما الجماد فلا يسمونه لا بهذا ولا بهذا.

١٢/٣٥٧

وشبهتهم لبست على طائفة من أهل النظر، فظنوا أنه إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام، لم يلزم أن يتصف بصفات النقص؛ لأنهما متقابلان تقابل العدم والملكية لا تقابل النقيضين.

فيقال لهم: هذا - أولاً - اصطلاح لكم، وإلا فغيركم يسمى الجماد ميتاً ومواتاً ونحو ذلك، كما في مثل قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

ويقال لهم ثانياً: النظر في المعاني العقلية، ومعلوم أن عدم هذه الصفات يستلزم النقص الثابت بعدمها.

ويقال لهم ثالثاً: إذا قلت لا يتصف بواحد منهما لكونه لا يقبل ذلك، فهذا النقص أعظم من نقص العمى والصمم والبكم؛ فإن ما لا يقبل / الاتصاف بصفات الكمال أنقص ممن هو قابل لها يمكن اتصافه بها؛ فإنه منه بدأ؛ لا كما يقوله الصابئة ومن وافقهم من الجهمية: إنه ابتداء من نفس النبي أو من «العقل الفعال» أو من «الهواء» بل هو

١٢/٣٥٨

تنزيل من حكيم حميد، وأنه إليه يعود إذا أسرى به من المصاحف والصدور.

وصار الإمام أحمد علماً لأهل السنة الجائين بعده من جميع الطوائف ، كلهم يوافقه في جمل أقواله، وأصول مذهبهم ؛ لأنه حفظ على الأمة الإيمان الموروث ، والأصول النبوية - ممن أراد أن يحرفها ويبدلها - ولم يشرع ديناً لم يأذن الله به، والذي قاله هو الذي يقوله سائر الأئمة الأعيان، حتى إن أعيان أقواله منصوصة عن أعيانهم، لكن جمع متفرقة ، وجاهد مخالفتها، وأظهر دلالة الكتاب والسنة عليها، ومقالاته ومقالات الأئمة قبله وبعده في الجهمية كثيرة مشهورة.

والجهمية هم نفاة صفات الله، المتبعون للصابئة الضالة . وصارت فروع التجهم تجول في نفوس كثير من الناس، فقال بعض من كان معروفاً بالسنة والحديث: ولا نقول مخلوق، ولا غير مخلوق بل نقف ، وباطن أكثرهم موافق للمخلوقية، ولكن كان المؤمنون أشد رهبة في صدورهم من الله.

١٢/٣٥٩ /وطائفة أخرى قالت : نقول : كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق، وأما القرآن الذي أنزله على رسوله وتلاه جبريل ومحمد والمؤمنون فهو مخلوق ، وهؤلاء هم «اللفظية». فصارت الأمة تنزع إلى إمامها إذ ذاك، فيقول لهم أحمد: افرقت الجهمية على ثلاث فرق: فرقة تقول: القرآن مخلوق؛ وفرقة تقول: كلام الله وتسكت، وفرقة تقول : ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة . فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن الذي نزل به جبريل على قلب رسول الله ﷺ هو قرآن مخلوق، لم يتكلم الله به، وكان لهؤلاء شبهة كون أفعالنا وأصواتنا مخلوقة، ونحن إنما نقرأه بحركاتنا وأصواتنا، وربما قال بعضهم: ما عندنا إلا ألفاظنا وتلاوتنا، وما في الأرض قرآن إلا هذا ، وهذا مخلوق.

فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا في البدعة، وردوا باطلاً بباطل ، وقابلوا الفاسد بالفاسد ، فقالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة، وألفاظنا به غير مخلوقة ؛ لأن هذا هو القرآن، والقرآن غير مخلوق، ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد في الدلالة ، وبين حال المسمى إذا كان مجرداً، وحاله إذا كان مقروناً مقيداً. فأنكر الإمام أحمد - أيضاً - على من قال : إن تلاوة العباد وقراءتهم وألفاظهم وأصواتهم غير مخلوقة، وأمر بهجران هؤلاء ، كما جهّم الأولين وبدّعهم . والنقل عنه / بذلك من ١٢/٣٦٠ رواية ابنه عبد الله وصالح المروزي وفوران وأبي طالب وأبي بكر بن صدقة وخلق كثير من أصحابه وأتباعه.

وقد قام أخص أتباعه - أبو بكر المروزي - بعد مماته في ذلك ، وجمع كلامه ، وكلام

الأئمة من أصحابه وغيرهم؛ مثل عبد الوهاب الوراق^(١)، والأثرم، وأبي داود السجستاني، والفضل بن زياد^(٢)، ومثنى بن جامع الأنباري، ومحمد بن إسحاق الصنعاني، ومحمد ابن سهل بن عسكر^(٣)، وغير هؤلاء من علماء الإسلام، وبين بدعة هؤلاء الذين يقولون: إن تلاوة العباد وألفاظهم بالقرآن غير مخلوقة.

وقد ذكر ذلك الخلال في كتاب «السنة» وبسط القول في ذلك، قال الخلال: أخبرني أبو بكر المروزي، قال: بلغ أبا عبد الله عن أبي طالب أنه كتب إلى أهل نصيبين: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، قال أبو بكر: فجاءنا صالح بن أحمد، فقال: قوموا إلى أبي، فجئنا فدخلنا على أبي عبد الله، فإذا هو غضبان شديد الغضب، قد تبين الغضب في وجهه، فقال: اذهب فجئني بأبي طالب، فجئت به، فقعده بين يدي أبي عبد الله، وهو يرعد، فقال: كتبت إلى أهل نصيبين تخبرهم عني أنني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟! فقال: إنما حكيت عن نفسي، قال: فلا يحل هذا عنك ولا عن نفسي، فما سمعت عالماً قال هذا. قال أبو عبد الله: القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف، فقل لأبي طالب: اخرج وأخبر / أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فخرج أبو طالب فلقى جماعة من المحدثين فأخبرهم: أن أبا عبد الله نهى أن يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق.

١٢/٣٦١

ومع هذا فكل واحدة من الطائفتين: الذين يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، والذين يقولون: لفظنا وتلاوتنا مخلوقة - تتحلل أبا عبد الله وتحكى قولها عنه، وتزعم أنه كان على مقالتها؛ لأنه إمام مقبول عند الجميع؛ ولأن الحق الذي مع كل طائفة يقوله أحمد، والباطل الذي تنكره كل طائفة على الأخرى يرده أحمد، فمحمد بن داود المصيصي - أحد علماء الحديث وأحد شيوخ أبي داود - وجماعة في زمانه كأبي حاتم الرازي وغيره يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، وتبعهم طائفة على ذلك، كأبي عبد الله بن حامد، وأبي نصر السجزي، وأبي عبد الله بن منده، وشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري، وأبي العلاء الهمداني، وأبي الفرج المقدسي، وغير هؤلاء يقولون: إن ألفاظنا

(١) هو أبو الحسن عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع الوراق البغدادي، صدوق، نسائي الأصل، وثقه النسائي والدارقطني وابن حبان والخطيب، مات سنة ٢٥٠هـ. [تهذيب التهذيب ٦/٤٤٨].

(٢) هو أبو العباس الفضل بن زياد البغدادي، الذي يقال له: الطستي يروى عن إسماعيل بن عياش وأهل العراق، كان ثقة. [الثقات لابن حبان ٦/٩، وتاريخ بغداد ١٢/٣٦٠].

(٣) هو أبو بكر محمد بن سهل بن عسكر بن عمارة بن دويد، ويقال: ابن عسكر بن مستور بدل عمارة التميمي، الحافظ الجوال. وثقه النسائي وابن عدي، سكن بغداد، ومات بها في شعبان سنة ٢٥١هـ. [تهذيب التهذيب ٩/٢٠٧].

بالقرآن غير مخلوقة، و يروون ذلك عن أحمد، وأنه رجع إلى ذلك، كما ذكره أبو نصر في كتابه « الإبانة » ، وهي روايات ضعيفة بأسانيد مجهولة لا تعارض ما تواتر عنه عند خواص أصحابه، وأهل بيته، والعلماء الثقات، لا سيما وقد علم أنه في حياته خطأ أبا طالب في النقل عنه ، حتى رده أحمد عن ذلك ، وغضب عليه غضباً شديداً.

١٢/٣٦٢ /وقد رأيت بعض هؤلاء طعن في تلك النقول الثابتة عنه. ومنهم من حرفها لفظاً ، وأما تحريف معانيها فذهب إليه طوائف ، فأما الذين ثبتوا النقل عنه ووافقوه على إنكاره الأمرين، وهم جمهور أهل السنة ومن انتسب إليهم من أهل الكلام كأبي الحسن الأشعري وأمثاله، فإنه ذكر في «مقالات أهل السنة والحديث» أنهم ينكرون على من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، ومن قال: لفظي به غير مخلوق، وأنه يقول بذلك.

لكن من هؤلاء من تأول كلام أحمد وغيره في ذلك بأنه منع أن يقال: إن القرآن يلفظ به، وهذا قاله الأشعري وابن الباقلاني والقاضي أبو يعلى وأتباعه ، كأبي الحسن بن الزاغوني وأمثاله.

ثم هؤلاء الذين تأولوا كلامه على ذلك منهم من قال : المعنى الذي أنكره أحمد على من قال: لفظي بالقرآن مخلوق كما فعل ذلك الأشعري وأتباعه. ومنهم من قال: بل المعنى الذي أنكره أحمد على من قال: لفظي به غير مخلوق كما فعل ذلك القاضي وابن الزاغوني وأمثالهما؛ فإن أحمد وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شيء من كلام الله مخلوقاً، حروفه أو معانيه، أو أن يكون معنى التوراة هو معنى القرآن ، وأن كلام الله إذا عبر عنه بالعربية يكون قرآناً، وإذا عبر عنه بالعبرانية يكون هو التوراة، وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله، أو أن يطلق / القول على ما هو كلام الله بأنه مخلوق، وأحمد والأئمة ينكرون على من يجعل شيئاً من أفعال العباد أو أصواتهم غير مخلوق؛ فضلاً عن أن يكون قديماً! وكلام أحمد في « مسألة التلاوة والإيمان والقرآن» من نمط واحد ، منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق؛ لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضاً إطلاق القول بأنه غير مخلوق لما في ذلك من البدعة والضلال.

١٢/٣٦٣ ولما كان أحمد قد صار هو إمام السنة، كان من جاء بعده ممن ينتسب إلى السنة ينتحله إماماً، كما ذكر ذلك الأشعري، في «كتاب الإبانة» وغيره، فقال: إن قال قائل : قد أنكرتم قول «الجهمية» و «المعتزلة» و «الخوارج» و «الروافض» و «المرجئة» فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا،

وما روى عن الصحابة والتابعين، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولما خالفه مجانبون، فإنه الإمام الكامل، والرئيس الفاضل، الذي أبان الله به الحق، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين. وذكر جملاً من المقالات.

12/374 / فلهذا صار من بعده متنازعين في هذا الباب . فالطائفة الذين يقولون: لفظنا وتلاوتنا غير مخلوقة ينتسبون إليه، ويزعمون أن هذا آخر قوله، أو يطعنون فيما يناقض ذلك عنه، أو يتأولون كلامه بما لم يرده.

والطائفة الذين يقولون: إن التلاوة مخلوقة، والقرآن المنزل الذي نزل به جبريل مخلوق، وإن الله لم يتكلم بحروف القرآن، يقولون: إن هذا قول أحمد، وأنهم موافقوه، كما فعل ذلك أبو الحسن الأشعري، فيما ذكره عن أحمد، وفسر به كلامه، وذكر أنه موافقه، وكما ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني في تنزيه أصحابه من مخالفة السنة وأئمتها كالإمام أحمد، وكما فعله أبو نعيم الأصبهاني في كتابه المعروف في ذلك، وكما فعله أبو ذر الهروي، والقاضي عبد الوهاب المالكي، وكما فعله أبو بكر البيهقي في الاعتقاد في مناقب الإمام أحمد. وروي عنه أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وتأول ما استفاض عنه من الإنكار على من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، على أنه أراد الجهمي المحض الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق.

وكذلك - أيضاً - افترى بعض الناس على البخاري الإمام صاحب «الصحیح» ، أنه كان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وجعلوه من «اللفظية»، حتى وقع بينه وبين أصحابه، مثل محمد بن يحيى الذهلي، / وأبي زرعة، وأبي حاتم، وغيرهم بسبب ذلك، وكان في القضية أهواء وظنون، حتى صنف «كتاب خلق الأفعال»، وذكر فيه ما رواه عن أبي قدامة، عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة. وذكر فيه ما يوافق ما ذكره في آخر كتابه «الصحیح» من أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يتكلم بصوت، وينادي بصوت، وساق في ذلك من الأحاديث الصحيحة والآثار ما ليس هذا موضع بسطه، وبين الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به وبين الصوت الذي يسمع من العباد، وأن الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من القارئ، وبين دلائل ذلك، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة، والله - تعالى - بفعله وكلامه غير مخلوق.

وقال في قوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ [الأنبياء: 2]، إن حدثه ليس كحدث المخلوقين، وذكر قول النبي ﷺ: «إن الله يحدث من أمره ما شاء، وإن مما أحدث

ألا تَكَلِّمُوا فِي الصَّلَاةِ»^(١) وذكر عن علماء السلف: أن خلق الرب للعالم ليس هو المخلوق، بل فعله القائم به غير مخلوق، وذكر عن نعيم بن حماد الخزازي: أن الفعل من لوازم الحياة، وأن الحي لا يكون إلا فعلاً، إلى غير ذلك من المعاني التي تدل على علمه وعلم السلف بالحق الموافق لصحيح المنقول وصریح المعقول.

وذكر أن كل واحدة من طائفتي « اللفظية المثبتة والنافية » تتحلل أبا عبد الله ، وأن /
أحمد بن حنبل كثير مما ينقل عنه كذب، وأنهم لم يفهموا بعض كلامه لدقته وغموضه،
وأن الذي قاله وقاله الإمام أحمد هو قول الأئمة والعلماء، وهو الذي دل عليه الكتاب
والسنة.

ورأيت بخط القاضي أبي يعلى - رحمه الله - على ظهر « كتاب العدة » بخطه، قال:
نقلت من آخر « كتاب الرسالة » للبخاري في أن القراءة غير المقروء ، وقال : وقع عندي
عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجهاً كلها يخالف بعضها بعضاً، والصحيح عندي
أنه قال: ما سمعت عالماً يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق. قال : وافترق أصحاب أحمد
ابن حنبل على نحو من خمسين. قال أبو عبد الله البخاري: قال ابن حنبل: «اللفظي»
الذي يقول: القرآن بألفاظنا مخلوق.

وكان - أيضاً - قد نبغ في أواخر عصر أبي عبد الله من الكلابية ونحوهم - أتباع أبي
محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، الذي صنف مصنفات رد فيها على الجهمية
والمعتزلة وغيرهم ، وهو من متكلمة الصفاتية، وطريقته يميل فيها إلى مذهب أهل الحديث
والسنة، لكن فيها نوع من البدعة ؛ لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ولم يثبت قيام
الأمر الاختيارية بذاته، ولكن له في الرد على الجهمية - نفاة الصفات والعلو - من
الدلائل والحجج وبسط القول ما بين به فضله / في هذا الباب، وإفساده لمذاهب نفاة
الصفات بأنواع من الأدلة والخطاب، وصار ما ذكره معونة ونصيراً وتخليصاً من شبههم
لكثير من أولى الألباب، حتى صار قدوة وإماماً لمن جاء بعده من هذا الصنف الذين أثبتوا
الصفات، وناقضوا نفاة، وإن كانوا قد شركوهم في بعض أصولهم الفاسدة ، التي
أوجبت فساد بعض ما قالوه من جهة المعقول، ومخالفته لسنة الرسول.

وكان ممن اتبعه الحارث المحاسبي، وأبو العباس القلانسي، ثم أبو الحسن الأشعري،
وأبو الحسن بن مهدي الطبري، وأبو العباس الضبي، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو حاتم

(١) البخاري في التوحيد معلقاً (الفتح ١٣/٤٩٦)، وأبو داود في الصلاة (٩٢٤)، والنسائي في السهو (١٢٢١)،
وأحمد ١/٣٧٧، ٤٠٩ كلهم عن عبد الله بن مسعود.

البستي، وغير هؤلاء المثبتين للصفات المنتسبين إلى السنة والحديث، المتلقين بنظار أهل الحديث.

وسلك طريقة ابن كلاب - في الفرق بين «الصفات اللازمة» كالحياة و «الصفات الاختيارية» وأن الرب يقوم به الأول دون الثاني- كثير من المتأخرين ، من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد ، كالتميميين أبي الحسن التميمي، وابنه أبي الفضل التميمي، وابن ابنه رزق الله التميمي، وعلى عقيدة الفضل - التي ذكر أنها عقيدة أحمد - اعتمد أبو بكر البيهقي فيما ذكره من مناقب أحمد من الاعتقاد.

وكذلك سلك طريقة ابن كلاب هذه أبو الحسن بن سالم وأتباعه / «السالمية» ، والقاضي أبو يعلى وأتباعه، كابن عقيل، وأبي الحسن بن الزاغوني ، وهي طريقة أبي المعالي الجويني، وأبي الوليد الباجي، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، لكنهم اختلفوا في القرآن، وفي بعض المسائل على قولين - بعد اشتراكهم في الفرق الذي قرره ابن كلاب - كما قد بسط كلام هؤلاء في مواضع أخر.

١٢/٣٦٨

والإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يحذرون عن هذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب، ويحذرون عن أصحابه، وهذا هو سبب تحذير الإمام أحمد عن الحارث المحاسبي ونحوه من الكلاية.

ولما ظهر هؤلاء ظهر حينئذ من المنتسبين إلى إثبات الصفات من يقول: إن الله لم يتكلم بصوت، فأنكر أحمد ذلك، وجهم من يقوله، وقال: هؤلاء الزنادقة إنما يدورون على التعطيل ، وروى الآثار في أن الله يتكلم بصوت ، وكذلك أنكر على من يقول: إن الحروف مخلوقة، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «السنة» : قلت لأبي : إن هاهنا من يقول: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: يابني ، هؤلاء جهمية زنادقة ، إنما يدورون على التعطيل . وذكر الآثار في خلاف قولهم.

/ وكذلك البخاري صاحب «الصحیح» وسائر الأئمة، أنكروا ذلك أيضاً، وروى البخاري في آخر «الصحیح» ، وفي كتاب «خلق الأفعال» ما جاء في ذلك من الآثار ، وبين الفرق بين صوت الله الذي يتكلم به وبين أصوات العباد بالقرآن؛ موافقة منه للإمام أحمد وغيره من الأئمة، حيث بين أن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار، وأن ذلك ليس صوت العبد بالقراءة، بل ذلك هو صوت العبد، كما قد نص على ذلك كله في مواضع، وعامة أئمة السنة والحديث على هذا الإثبات والتفريق، لا يوافقون قول من يزعم أن الكلام ليس فيه حرف ولا صوت، ولا يوافقون قول من يزعم أن الصوت المسموع من القراءة وألفاظهم قديمة، ولا يقولون: إن القرآن ليس إلا الحروف والأصوات.

١٢/٣٦٩

وقد كتبت كلام الإمام أحمد ونصوصه، وكلام الأئمة قبله وبعده في غير هذا الموضوع، فإن جواب هذه «المسألة» لا يحتمل البسط الكثير، ولم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمة أن الصوت الذي تكلم الله به قديم، بل يقولون: لم يزل الله متكلمًا، وقد يقولون: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء بما شاء، كما يقول ذلك الإمام أحمد، وابن المبارك، وغيرهما.

وكذلك قد تنازع الناس في زمنهم وبعده- من أصحابهم وغيرهم - في معنى كون القرآن غير مخلوق، هل المراد به أن نفس الكلام قديم / أزلي كالعلم؟ أو أن الله لم يزل موصوفًا بأنه متكلم يتكلم إذا شاء؟ على قولين. ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة، وأبو بكر عبد العزيز في «كتاب الشافي» عن أصحاب الإمام أحمد، وذكرهما أبو عبد الله بن حامد في كتابه «أصول الدين». والنزاع في ذلك بين سائر طوائف السنة والحديث، هذا مبنى على أصل «الصفات الفعلية الاختيارية»، والنزاع فيه بين جميع الطوائف من أهل الحديث والسنة والفقهاء والتصوف ومن دخل معهم من أهل المذاهب الأربعة وبين سائر الفرق، حتى بين الفلاسفة أيضًا، وقد حققت ذلك في غير هذا الموضوع.

وهذا منشأ نزاع الذين وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، فإن هؤلاء تنازعوا في أن الرب هل يتكلم بمشيئته وقدرته؟ على قولين. فالذين وافقوا ابن كلاب قالوا: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه لازم لذاته كحياته، ثم من هؤلاء من عرف أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين فلم يمكنه أن يقول: القديم هو الحروف والأصوات؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة، والصوت لا يبقى زمانين، فضلًا عن أن يكون قديمًا، فقال: القديم هو معنى واحد، لامتناع معاني لا نهاية لها، وامتناع التخصيص بعدد دون عدد. فقالوا: هو معنى واحد، وقالوا: إن الله لا يتكلم بالكلام العربي والعبري، وقالوا: إن معنى التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله معنى واحد، / ومعنى آية الكرسي وآية الدين معنى واحد. إلى غير ذلك من اللوازم التي يقول جمهور العقلاء: إنها معلومة الفساد بضرورة العقل. ومن هؤلاء من عرف أن الله تكلم بالقرآن العربي والتوراة العبرية، وأنه نادى موسى بصوت وينادي عباده بصوت، وأن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه؛ لكن اعتقدوا مع ذلك أنه قديم العين، وأن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته. فالتزموا أنه حروف وأصوات قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال، وقالوا: إن الباء لم تسبق السين، والسين لم تسبق الميم، وإن جميع الحروف مقترنة بعضها ببعض اقترانًا قديمًا

أزليًا لم يزل ولا يزال، وقالوا: هي مترتبة في حقيقتها وماهيتها غير مترتبة في وجودها. وقال كثير منهم: إنها مع ذلك شيء واحد، إلى غير ذلك من اللوازم التي يقول جمهور العقلاء: إنها معلومة الفساد بضرورة العقل.

ومن هؤلاء من يقول: هو قديم، ولا يفهم معنى القديم. فإذا سئل عن ذلك قال: هي قديمة في العلم، ولا يعلم أن المخلوقات كالسما والأرض بهذه المثابة مع أنها مخلوقة، ومنهم من يقول: قديم بمعنى أنه متقدم على غيره، ولا يعرف أن الذين قالوا: إنه مخلوق لا ينازعون في أنه قديم بهذا المعنى، ومنهم من يقول: إن مرادنا بأنه قديم أنه غير مخلوق، ولا يفهم أنه مع ذلك يكون أزليًا لم يزل، وهؤلاء سمعوا / ممن يوافقهم على أنه غير مخلوق، قالوا: هو قديم، فوافقوا على أنه قديم، ولم يتصوروا ما يقولونه.

١٢/٣٧٢

كما أن من الناس من قال: هو غير مخلوق، وأراد بذلك أنه غير مكذوب، وهذا مما لم يتنازع فيه الناس، كما لم يتنازعوا في أنه قديم بمعنى أنه متقدم على غيره.

والقول الثاني: قول من يقول: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق. وهذا قول جماهير أهل السنة والنظر، وأئمة السنة والحديث، لكن من هؤلاء من اعتقد أن الله لم يكن يمكنه أن يتكلم في الأزل بمشيئته، كما لم يكن يمكنه عندهم أن يفعل في الأزل شيئًا، فالتزموا أنه تكلم بمشيئته بعد أن لم يكن متكلمًا، كما أنه فعل بعد أن لم يكن فاعلاً، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث والسنة.

وأما السلف والأئمة فقالوا: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وإن كان مع ذلك قديم النوع - بمعنى أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء؛ فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلمًا بمشيئته وقدرته، ومن لا يزال متكلمًا بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنًا له بعد أن يكون ممتنعًا منه، أو قدر أن ذلك ممكن، فكيف إذا / كان ممتنعًا؟ لا ممتنع أن يصير الرب قادرًا بعد أن لم يكن، وأن يكون التكلم والفعل ممكنًا بعد أن كان غير ممكن؟ كما قد بسط هذا في مواضع آخر.

١٢/٣٧٣

وكانت «اللفظية الخلقية» من أهل الحديث يقولون: نقول: إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، وإن التلاوة غير المتلو. والقراءة غير المقروء. و«اللفظية المثبتة» يقولون: نقول: إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة، والتلاوة هي المتلو، والقراءة هي المقروء.

وأما المنصوص الصريح عن الإمام أحمد، وأعيان أصحابه، وسائر أئمة السنة والحديث، فلا يقولون: مخلوقة ولا غير مخلوقة، ولا يقولون: التلاوة هي المتلو مطلقًا، ولا غير المتلو مطلقًا كما لا يقولون: الاسم هو المسمى، ولا غير المسمى.

وذلك أن «التلاوة والقراءة» كاللفظ قد يراد به مصدر تلى يتلو تلاوة، وقرأ يقرأ قراءة، ولفظ يلفظ لفظاً، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته، وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة. واللفظ مخلوق، وليس ذلك هو القول المسموع الذي هو المتلو. وقد يراد باللفظ الملفوظ، وبالتلاوة المتلو، وبالقراءة المقروء، وهو القول المسموع، وذلك هو المتلو، ومعلوم أن القرآن المتلو الذي يتلوه العبد، ويلفظ / به غير مخلوق، وقد يراد بذلك مجموع الأمرين ، فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع .

١٢/٣٧٤

وصار ابن كلاب يريد بالتلاوة القرآن العربي، وبالمتلو المعنى القائم بالذات، وهؤلاء إذا قالوا: التلاوة غير المتلو ، وهي مخلوقة ، كان مرادهم أن الله لم يتكلم بالقرآن العربي، بل عندهم أن القرآن العربي مخلوق. وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة والحديث. ويظن هؤلاء أنهم يوافقون البخاري أو غيره ممن قد يفرق بين التلاوة والمتلو، وليس الأمر كذلك.

ومن الآخرين من يقول: «التلاوة» هي المتلو ، ويريد بذلك أن نفس ما تكلم الله به من الحروف والأصوات هو الأصوات المسموعة من القراء، حتى يجعل الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب، وهؤلاء يقولون: نفس صوت المخلوق وصفته هي عين صفة الخالق، وهؤلاء «اتحادية، حلولية في الصفات» يشبهون النصارى من بعض الوجوه، وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة.

ويظن هؤلاء أنهم يوافقون أحمد وإسحاق وغيرهما، ممن ينكر على «اللفظية» ، وليس الأمر كذلك ؛ فلماذا كان المنصوص عن الإمام أحمد وأئمة السنة والحديث أنه لا يقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ولا غير / مخلوقة ، ولا أن التلاوة هي المتلو مطلقاً، ولا غير المتلو مطلقاً ؛ فإن اسم القول والكلام قد يتناول هذا وهذا؛ ولهذا يجعل الكلام قسيماً للعمل ليس قسماً منه في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقد يجعل قسماً منه كما في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] ، قال طائفة من السلف: عن قول لا إله إلا الله، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، فقال رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل... »^(١)؛ ولهذا تنازع أصحاب أحمد فيمن حلف: لا يعمل اليوم عملاً، هل يحث بالكلام؟ على قولين. ذكرهما القاضي أبو يعلى وغيره.

١٢/٣٧٥

(١) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٢٦٦/٨١٥)، (٢٦٧).

ولم تكن « اللفظية الخلقية » ينكرون كون القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه، وأن الله يتكلم بصوت، بل قد يقولون: القرآن كله كلام الله، حروفه ومعانيه؛ فإن الله يتكلم بصوت، كما نص عليه أحمد والبخاري وغيرهما من الأئمة، وكما جاءت به الآثار، ولكن يقولون: المنزل إلى الأرض من الحروف والمعاني ليس هو نفس كلام الله الذي ليس بمخلوق، بل ربما سموها حكاية عن كلام الله، كما يقوله ابن كلاب، أو عبارة عن كلام الله كما يقوله الأشعري، وربما سموها كلام الله؛ لأن المعنى مفهوم عندهم.

١٢/٣٧٦ / ولكن لما حدث أبو محمد بن كلاب وناظر المعتزلة بطريق قياسية سلم لهم فيها أصولاً - هم واضعوها؛ من امتناع تكلمه تعالى بالحروف، وامتناع قيام « الصفات الاختيارية » بذاته مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والكلام وغير ذلك؛ لأن ذلك يستلزم أنه لم يخل من الحوادث، وما لم يخل من الحوادث، فهو حادث - اضطره ذلك إلى أن يقول: ليس كلام الله إلا مجرد المعنى، وأن الحروف ليست من كلام الله، وتابعه على ذلك أبو الحسن الأشعري؛ وإن تنازعا في أن الرب كان في الأزل أمراً ناهياً، أو صار أمراً ناهياً بعد أن لم يكن، وفي أن « الكلام » هل هو صفة واحدة كما يقوله الأشعري، أو خمس صفات كما يقوله ابن كلاب.

وصار هؤلاء مخالفين لأئمة السنة والحديث في شيئين:

أحدهما: أن نصف القرآن من كلام الله، والنصف الآخر ليس كلام الله عندهم، بل خلقه الله في الهواء، أو في اللوح المحفوظ، أو أحدثه جبريل، أو محمد ﷺ. وهؤلاء في كونهم جعلوا نصف القرآن مخلوقاً موافقين لمن قال بخلقه، لكن هؤلاء يقولون: إن هذا النصف المخلوق كلام الله، وأولئك يقولون: هو مخلوق منفصل عن الله، وهو كلامه، لكن أولئك لا يجعلون لله كلاماً متصلاً به قائماً بنفسه، ولا معاني ولا حروفاً. وهؤلاء يقولون: لله كلام قائم به / متصل به هو معنى. فصار أولئك أشد بدعة في نفهم حقيقة الكلام عن الله، وفي جعلهم كلام الله مخلوقاً. وهؤلاء أشد بدعة في إخراجهم ما هو من كلام الله عن أن يكون من كلام الله، وصاروا في هذا موافقين للوحيد (١) في بعض قوله لا في كله، وهو قولهم: إن نصف القرآن ليس قول الله، بل قول البشر.

وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه، ولم يتأمل هذا القائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل، وتارة إلى رسول هو محمد، بقوله في الآية الأولى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾

(١) هو الوليد بن المغيرة، المقصود في قوله تعالى: ﴿ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾.

[التكوير: ١٩- ٢١]، فهذا جبريل، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢] وهذا محمد ، فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتداء حروفه وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما ؛ لامتناع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه ؛ ولأنه قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً، فلو كان الرسول ابتداءه لكان القرآن من عنده لا من عند الله، وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله ؛ ولهذا قال : ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل : لقول ملك ولا نبي، بل جاء باسم الرسول ليتبين / أنه واسطة فيه وسفير ، والكلام كلام لمن اتصف به مبتدئاً منشئاً، لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً، كما يقال مثل ذلك في جميع كلام الناس فكيف بكلام الله !؟ وهذا على القول المشهور في التفسير المطابق لظاهر القرآن : أن الرسول في أحد الموضوعين محمد ﷺ ، وفي الآخر جبريل - عليه السلام .

١٢/٣٧٨

وأما على قول طائفة جعلته في الموضوعين جبريل، فيكون الجواب هو الثاني، والإثبات في الحقيقة حجة لمن يقول: إنما يتكلم بكلام الله ويقول قوله؛ لأنه جعل الرسول يقول قول الله الذي أرسله به، والمعنى يراد من هذا قطعاً، كما أريد منه اللفظ أيضاً.

وأيضاً ، فإن هؤلاء جعلوا الكلام الذي يتصف الله به معنى واحداً ، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وأنه إن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن، وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان هو الإنجيل ، وهذا مما أجمع جمهور العقلاء على أن فساده معلوم بالضرورة .

والمعنى الثاني - الذي خالفوا فيه أهل السنة والجماعة - قولهم : إن القرآن المنزل إلى الأرض ليس هو كلام الله لا حروفه ولا معانيه ، بل هو مخلوق عندهم . ويقولون : هو عبارة عن المعنى القائم بالنفس ؛ لأن/ العبارة لا تشبه المعبر عنه، بخلاف الحكاية والمحكي، وهذا فيه من زيادة البدع ما لم يكن في قول « اللفظية » من أهل الحديث، الذين أنكروا عليهم أئمة السنة وقالوا: هم جهمية ؛ إذ جعلوا الحروف من إحداه الرسول، وليست مما تكلم الله به بحال ، وقالوا : إنه ليس لله في الأرض كلام ، ولم يكن - أيضاً - في «اللفظية» القدماء، الذين يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، من يقول: إن صوت العبد غير مخلوق، أو أن الصوت القديم يسمع من العبد، أو أن هذا الصوت صوت الله ، أو يسمع معه صوت الله ، وإنما أحدث هذا - أيضاً - المتطرفون منهم، كما أحدث المتطرفون من أولئك أن حروف القرآن ليست كلام الله ، فإن هاتين البدعتين الشيعيتين لم تكونا بعدُ ظهرتا في أولئك المنحرفين ، الذين أنكروا الإمام أحمد وغيره قولهم من الطائفتين ، وأن

١٢/٣٧٩

القرآن ليس إلا مجرد معنى قائم بالنفس ، وذلك المعنى إليه يعود كلام الله من التوراة والإنجيل والقرآن .

والأخرى قد رأت حروف القرآن من كلام الله ، وأن القرآن كلام الله ، حروفه ومعانيه ، وأن المعنى الواحد يمتنع أن يكون هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وأنه يمتنع أن يكون مدلول التوراة والإنجيل والقرآن واحداً ، وعلموا أنا إذا ترجمنا التوراة بالعربية لم يصير معناها معنى القرآن ، وأن هذه الأقوال معلومة الفساد / بالضرورة ، عارضها بعضها ، لأن القرآن حرف وصوت ، واعتقد بعضهم أنه ليس القرآن والكلام إلا مجرد الحروف والأصوات ، وأولئك يقولون : ليس الكلام إلا مجرد المعنى القائم بالنفس .

١٢/٣٨٠

وكلا هذين السليين الجحودين الحادثين خلاف ما كان عليه الأئمة ، كالإمام أحمد وغيره من الأئمة ، وأعيان العلماء من سائر الطوائف . فإن الكلام عندهم اسم للحروف والمعاني جميعاً ، كما أن «الإنسان» الناطق المتكلم اسم للجسد والروح جميعاً ، ومن قال : إن الإنسان ليس إلا هذه الجملة المشاهدة فهو بمنزلة من قال : ليس الكلام إلا الأصوات المقطعة ، ومن قال : إن الإنسان ليس إلا لطيفة وراء هذا الجسد ، فهو بمنزلة من قال : إن الكلام ليس إلا معنى وراء هذه الحروف والأصوات ، وكلاهما جحد لبعض حقائق مسميات الأسماء ، وإنكار لحدود ما أنزل الله على رسوله .

فصل

ثم إن فروخ «اللفظية النافية» ، الذين يقولون بأن حروف القرآن ليست من كلام الله ، تروي عن منازعيها أنهم يقولون : القرآن ليس هو إلا الأصوات المسموعة من العبد ، وإلا المداد المكتوب في الورق ، / وأن هذه الأصوات وهذا المداد قديمان ، وهذا القول ما قاله أحد ممن يقول : إن القرآن ليس إلا الحروف والأصوات ، بل أنكروا ذلك وردوه ، وكذبوا من نقل عنهم أن المداد قديم ، ولكن هذا القول قد يقوله الجهال المتطرفون ، كما يحكى عن أعيانهم - مثل سكان بعض الجبال - أن الورق والجلد والوتد وما أحاط به من الحائط كلام الله ، أو ما يشبه هذا اللغو من القول الذي لا يقوله مسلم ولا عاقل .

١٢/٣٨١

وفروخ «اللفظية» المثبتة الذين يقولون : إن القرآن ليس إلا الحروف والصوت ، تحكي عن منازعيها : أن القرآن ليس محفوظاً في القلوب . ولا متلوّاً بالألسن ، ولا مكتوباً في المصاحف ، وهذا - أيضاً - ليس قولاً لأولئك ، بل هم متفقون على أن القرآن محفوظ في القلوب متلوّاً بالألسته ، مكتوب في المصاحف ، لكن جهالهم وغاليتهم إذا تدبروا حقيقة